

تأليف

محمود شاكر

المكتب الاسلامي



سيادة الجهال

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

المحتوى

المقدمة : ٥

سيادة الجهال : ١٣

البداية : ١٧

وصول الجهال : ١٩

أولاً ـ القرامطة ١٩

ثانياً ـ العمال ٢٨

ثالثاً ـ أصحاب الأموال ٣٥

رابعاً ـ الجند ٤١

خامساً ـ غير المبالين ٤٦

تصرف الجهال : ٥٣

أولاً ـ تصرف أصحاب الثراء ٥٣

ثانياً ـ تصرّف الاشتراكيين ٥٥

ثالثاً – تصرف الجند ٥٩

رابعاً – تصرف المرفهين ٦٢

خامساً ـ تصرف الضعفاء ٦٤

سادساً ـ تصرف الجهال ٦٧
سابعاً ـ تصرف الطغاة ٦٩
ثامناً ـ تصرف المهزومين ٧٠

الأنظمة الوضعية : ٧٥
إدارة الجهال ٨١
الإمارة الحمدانية ٨٥
إقليم كاتانغا ٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين محمد بن عبد الله ، خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وعلى إخوانه الأنبياء جميعاً ، وآله وصحبه ، ومن سار على دربه إلى يوم الدين وبعد :

فإنه منذ أن وُجدت المجتمعات البشرية على سطح الأرض أخذت بالانقياد لأحد أفرادها الذين اشتهروا بالقوة والشجاعة في مُنازلة الأعداء ، إذ برز بين جماعته كمُحامٍ ومُدافعٍ ، أو استطاع بتلك القوة من السيطرة على من حوله ففرض عليهم نوعاً من الانصياع لرأيه وتنفيذ أمره . وربما انقادت جماعات لمن عُرفوا بسداد الرأي ، والتأنّي بالتصرّف ، والحكمة في القول ، وهكذا حتى انتظمت الجماعات ، وتشكّلت التنظيمات ، واتّفق الأفراد لاختيار القائد .

وكما تباينت الجماعات في اسم القائد بين أمير ، وزعيم، وسيّد ، وقائد ، وملك، اختلف كذلك في طريق اختيار هذا الرأس ، لقد اتفقت بعض التنظيمات على اختيار سيّدها عن طريق المشاورة بين مجموعةٍ من البارزين من رجالها سمّاهم بعضهم بمشايخ القبائل ، وعرّفهم بعضهم بالأعيان والوجوه ، وحدّدهم بعضهم الآخر برؤساء الدوائر ، ولا شكّ أن بعضها قد سلك طريق الوراثة كوسيلةٍ للاختيار بغضّ النظر عن الجنس من ذكرٍ أو أنثى أو الكفاءة والقدرة على تسيير شؤون الرعية ، بل إن بعض المجتمعات قد أبقت هذا المركز رمزاً ، وسيّر الأمر من دونه آخـرون يأتمرون اسماً بأمره ، أو يتلقّون التعليمات منه ، على حين رأت تنظيمات ثانية أن يكون الاختيار عن طريق الانتخاب ، وإذا كان بعضهم قد قصر هذا الانتخاب على فئةٍ دون أخرى ، كأن يكون الرجال دون النساء ، أو مجموعة دون ثانيةٍ ، كأن يكون العمال لا سواهم ، أو أصحاب الأملاك والأثرياء لا غيرهم ، وحدّد بعضهم ذلك بشروطٍ مُعيّنةٍ على أساس مستوى التعليم أو الشهادة بينما أطلقتها تجمّعات أخرى على جميع أفراد الشعب دون

استثناء ، ومن غير تحديدٍ ، لا فرق بين العالم العامل والجاهل الأبله ، ولا تباين بين الرجل العاقل الذي أينما اتجه جاء بخيرٍ بإذن ربّه ، وعرف موقعه ، وتبين له الوسيلة التي عليه أن يسلكها ليحصل على هدفه ، وبين الأبكم الأصم الأعمى الذي هو كلّ على مولاه . وكثُر الدفاع عن كل أسلوبٍ من قبل الذين ارتأوه ، واعتادوا السير عليه ، واعتمدت بعض التجمّعات بالوصول إلى السلطة عن طريق الصراع والمنافسة بين الرجال والأحزاب السياسية ، وهو ما يُسمّونه بـ « الديمقراطية » ، وفي الواقع فإن لكل طريقةٍ إيجابياتها وسلبياتها ، ولا تكاد تخلو طريقة من نقاط سوءٍ مادامت من اختراع البشر ووضعهم ، ولكن قد تصل هذه السلبيات إلى مرحلة الهدم ، وكذلك فإننا لانستطيع نكران بعض الإيجابيات .

واعتمد اليهود نتيجة نظرتهم المادية المتأصّلة ، وحياتهم التي طبعت تفكيرهم بالطابع المادي الصارخ على النظرة إلى أصحاب المال نظرةً خاصةً ترفعهم إلى سدّة الرئاسة وموضع السيادة دون سواهم (وقال لهم نبيّهم إنّ اللّه قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن

أحقّ بالملك منه ولم يُؤت سعةً من المال قال إنّ اللّه اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم واللّه يُؤتي ملكه من يشاء واللّه واسع عليم) سورة البقرة ـ الآية ٢٤٧ . ومن هنا كان ذوو رؤوس الأموال ، وكبار مُلاّك المؤسّسات هم أصحاب النفوذ والسيطرة والهيمنة عند اليهود ، وبهذه الأموال يعملون بجدٍ في مُحاولةٍ للسيطرة على العالم ، ويُسخّرون في سبيل ذلك الجنس ، والأعمال الجاسوسية ، والإرهاب ، وطُبع هذا تماماً على أسلوب حياتهم وسلوكهم.

أما النصارى فيرون حتى الآن الإبقاء على الصراع العالمي ليتسنّى لهم استمرار السيطرة على العالم ، وإيجاد الاختلاف بين الشعوب لإشعال الحرب فيما بينها ، وقد طُبع هذا على كلّ تصرّفاتهم وسياستهم إذ أوجدوا ما أطلقوا عليه اسم « الديمقراطية » التي تقوم على الصراع بين الأحزاب والرجالات في الانتخابات ، وفي المجلس النيابي ، وفي تسلّم السلطة ، وفي الوقت نفسه يعملون على إيجاد الخلاف بين الأمم والمجموعات البشرية الأخرى بل يُحاولون التفرقة بين أفراد كل مجموعةٍ لتكون لهم الكبرياء في الأرض ، والربح المادي بمدّ كلا الطرفين المتصارعين ،

وأصبح المثل الشائع في سياستهم « فرّق تسد » . ومع هذا فقد أعجب بهذ النظام ـ مع الأسف ـ كثير من غير النصارى ، ومنهم عدد من المسلمين ، وأرادوا السير على نهجه رغم فكرة الصراع التي يقوم عليها ، والتي يحملها بين ثناياه ، ولكنهم مع ذلك لم يُوفّقوا لأن الممارسة تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ ، وطبيعة في قبول الأمر الواقع ، وعدم وجود الإحساس المرهف بنتائج الهزيمة أو غيرها من تناقضاتٍ تظهر أثناء الممارسة مادام النظام وضعياً ، إذ هو بحاجةٍ إلى تغييراتٍ مستمرةٍ ودائمةٍ لتتفق مع النظام القائم ، والحاكم المسيطر .

أما المسلمون فقد اعتمدوا الاختيار عن طريق أهل الحلّ والعقد الذين هم أهل العلم والقيادة والإدارة في مختلف الأمصار مهما اتسعت أقاليمها أو زاد عددها ، واتبعوا نظام الشورى ، وكل ذلك مقيد بتشريعٍ خاصٍ هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيمٍ خبيرٍ ، خالق الإنسان ، ومُقدّر أموره ، ومُدبّر شؤونه ، العالم بطبيعة مخلوقاته وأسرار الكون المسخّر للإنسان ، هذا إضافةً إلى سنّة رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، التي هي مُفسّرة لكتاب الله ، ومُبيّنة للأحكام ، ومُنظّمة للعلاقات الإنسانية التي تشمل منهج الحياة كله من سياسةٍ ، واقتصادٍ ، واجتماعٍ ، مع شعائر العبادات ، وأداء المناسك ، فالنظام حُرّ مُقيّد ، له شرعه الدائم الذي لا خلل فيه ، ولا اعوجاج ، ولا يحتاج إلى تغييرٍ مادام من تنزيل خالق الإنسان ، ليسعد البشر بتطبيقه في كل زمانٍ ، وكل مكانٍ .

ومع ما وُجد من تشريعٍ لاختيار القيادة أو وُضع من قوانين فإن أحياناً كثيرةً لا تزال تستعمل القوة تارةً ، والحيلة تارةً أخرى ، والاعتماد على الآخرين مرةً ثالثةً في سبيل السيطرة على مُقدّرات الأمّة ، ومن هذه القوة ما يكون من تكتل الجهّال غير المبالين ، وتنظيم شؤونهم في مُحاولة الوصول إلى مركز السلطة ، وهذا التكتل يشمل فئاتٍ كثيرةً سواء أكانت مصلحيةً أم عسكريةً ، أم عماليةً ، أم غوغائيةً ، أم قُطّاع طرقٍ ، أم كانوا مُجرّد مُهملين مُغفّلين يعتمد بعضهم على ما ورثه من عزٍّ ، أو مالٍ ، أو مركزٍ ، فترك الحكمة والعلم ، والمنطق والاتزان وانصرف وراء بطانةٍ من أهل السوء يعيثون فساداً يشغلون وقتهم

بذلك ، ويُعوّضون عما ينقصهم بالمخالفات والتعدّيات ، وغالباً ما تتألّف هذه المجموعات من أناسٍ لا خبرة لهم في شؤون الإدارة ، ولا علم لهم بالسياسة ، ولا ينظرون إلى مصلحة الأمّة ، وإنما تُهمّهم مصالحهم ، وشُهرتهم ، وتحقيق رغباتهم وشهواتهم .

ونحبّ أن نُبيّن للناس جميعاً كيف يكون وضع البلاد عندما يسود الجهّال ، ويتحكّم فيهم العامة ، فتسير إلى الوراء تدريجياً حتى تنهار الأمة ، وتُصبح تبعاً لغيرها ، ويتسلّط عليها أعداؤها ، وإن كانت تتقدّم في نواحي البناء ، واللباس ، والطعام ، ووسائل المواصلات ، فإنّ هذا لن يُغري إلاّ الأغبياء ، ولن يُفتن إلاّ الجهّال فيسقطون ، وهم يظنّون أنفسهم بالعلياء فإن الاعتماد على قوة غيرهم ، ومنتجات غيرهم لن يكون إلاّ وبالاً عليهم .

وأخيراً نرجو من الله أن نُوفّق في إعطاء الصورة الواضحة ليستيقظ النائم ، ويتّعظ صاحب العقل ، ويعمل الجميع لما فيه خير الأمّة .

والله نسأل التوفيق وسداد الخُطا في كل خطوةٍ

نخطوها، وفي كل كلمةٍ نتفوّه بها ، وفي كل جملةٍ ندوّنها ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم.

سيادة الجهال

بدأت الحياة الإنسانية على سطح الأرض بخلق آدم عليه السلام ، واتصفت بطبيعة الهدوء والرتابة ، والاستقرار والسعادة ، واتّسمت بالحبّ والوئام بين الأفراد القليلي العدد الذين أخذوا بالزيادة بالتناسل والولادة ، ولكن لا يمكن للحياة أن تستمرّ على هذه الصورة فلا بدّ من الامتحان ، ولا بدّ من الابتلاء ، لتُبتلى أخبار كل امرئٍ ، وليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الصابرين ، ويعلم الجاحدين المنكرين الذين يصدّون عن الخير ، ويتّخذون آلهتهم أهواءهم ، ويجزي الله كل إنسانٍ بما كسب .

وكان أول تمرّدٍ في الحياة تمرّد « قابيل » على والده آدم عليه السلام ، وعلى حكمته ، وعلى المجموعة البشرية المحدودة ، وعلى الشرع الذي تسير عليه ، لقد دفعه هواه إلى قتل أخيه « هابيل » لإظهار قوته ، فهو راعٍ شديد البأس، فيجب حسبما أرشده إليه عقله القاصر ، وجهله ، وهواه أن يتخذ من هذه القوة ما يُحقّق لنفسه الشهوة بأخذ

زوجة أخيه هابيل القتيل التي خصّصتها تعاليم والده لذلك الأخ ، تلك التعاليم التي هي شرع تلك الفئة المحدودة من البشر ، ومن ثم فرض سيطرته على تلك المجموعة ، وقد أعماه هواه ، كما أعمته تلك الأطماع ، وأضلّه جهله ، ونسي أن تعاليم والده هي ما علّمه إياها ربّه . فكان الهوى، وحبّ السيطرة ، والجهل ، والغرور بالقوة ، وكانت الشهوة ، والرغبة في التحلّل من القيم هي التي دفعت «قابيل» لارتكاب جريمته الأولى على سطح الأرض .

لقد ارتكب قابيل جريمته الأولى فخاف من حماقته ذووه، وفسح المجال أمام الجاهل ليتخذ هو ومن يطغى عليه هواه القوة لتحقيق ما يرغب ، ولإبطال ما سُنّ للناس من شرعٍ ، وما تعارفوا عليه من قيمٍ ، فأصبحت الشرائع تُداس ، والأنظمة تُهمل ، والقوانين يتخطّاها المارقون ، وأصحاب القوة يتحكّمون بالذين هم أقلّ قوةً منهم ، والهوى يطغى ، والفساد يتسلّل إلى المجتمع ، وإن كان من خلال ثقوبٍ ضيّقةٍ لأن الفئة البشرية كانت محدودةً العدد ، غير أن الثقوب أصبحت تتسع ، وتُخترق بقوةٍ واندفاعٍ مع زيادة البشر ، واستشراء الفتن ، واستمرار الرذيلة .

وكانت النبوات تتابع للتوجيه إلى توحيد الله وعبادته ، ولاجتثاث أصول الشرّ ، ولكن الجاهلين كانوا يقفون في وجه هذه النبوات وأتباعها ، ويُحاربونهم ، ويكون الصراع ، وما أن ينتهي زمن النبي حتى يعود الظلم للتفشّي ، والشرّ للتوسّع . وكانت النبوة الخاتمة التي عمّ نورها فأضاءت منه الأرض ، ولكن مع الزمن أخذ ذلك النور يخفّ لتهاون أهله بمنابعه ، وقام مُصلحون ومُصلحون و ... فكانت تظهر إشراقات ثم تختفي ... ويحتاج الأمر اليوم إلى مُصلحين يُنبّهون الناس إلى ماهم عليه ، ويأخذون بأيديهم إلى طريق الخير ، ويُوضحون لهم سبيل الرشاد لمقاومة الطغاة والمُتسلّطين الجهّال الذين يُسيئون للأمّة ، ويتحكّمون في مُقدّراتها ، ويجرّونها إلى طريق التدنّي والسير نحو الهاوية والهلاك .

ومن تلك المنافذ يسود الجهّال ، ومن هذه المنافذ يخرجون . وليس الجهّال أولئك الأميّون الذين لايعرفون القراءة والكتابة وإنما أولئك الذين لايُحسنون العمل المناط بهم ولايُقدّرون المسؤولية الملقاة على عاتقهم فيضعون الأمور في غير موضعها ، أو يُسلّمونها لأناسٍ لا يبالون بالأعمال

ونجاحها ، والأشغال وإنجازها ، وإنما يتركون الحبل على الغارب ، فتتوقّف المعاملات، ويتعقّد سير أعمال الدوائر ، وتتراجع الأمّة باستمرار ، وينتشر أهل السوء في البلاد ، ويقومون بالتعدّيات ، ويرتكبون المخالفات تارةً بالسرّ ، وأخرى بالعلن إذا أحسّوا بضعف الرعية ، وصاروا بحماية الراعي الذي لايفترق عنهم كثيراً إذ لو يكن منهم لما سمح لأمثالهم بالخروج من جحورهم ، بل لم يكن المجتمع ليضمّ أشباههم .

البداية

قلنا إن بداية التطلّع نحو الفساد إنما كان بارتكاب قابيل لجريمته الأولى ، غير أن البشرية كانت أحياناً تهتدي بهدي النبوات في بعض المناطق التي يُرسل إليها رسول ، إلاّ أنّها لا تلبث أن تبتعد عنها تدريجياً حتى تزول آثارها تحت تأثير الجهّال ، من أصحاب الهوى ، والشهوات ، والمصالح ، وحبّ التسلّط .

وانساح البشر في الأرض في كل الجهات وتكاثر ، وابتعد عن أرض النبوات ، وبدأ حياته من جديدٍ على آثار الجهل القديم ، وعلى ما سيّره عقله القاصر المغطّى بركام ذلك الجهل ، فتسلّط على الناس جهّالهم ، وأقوياؤهم ، وكهّانهم ، وورث الأحفاد ذلك التسلّط ، وبقوا رمزاً ، ولو كانوا نساءً لا يقدرون على شيءٍ ، وأخذت البشرية هناك تحبو نحو التنظيم حتى كان له دور واسع، ونفوذ شامل ، وغدا أساس الحياة الاجتماعية .

وفي أرض النبوات أخذ الناس يتخلّون تدريجياً عما

شرُع لهم ، حتى ضعُف أمرهم ، وتسلّط عليهم جهّال تلك المناطق التي نظّمت نفسها ، فساموهم سوء العذاب ، ثم وضعوا مكانهم جهّالاً مُستبدّين من أبناء البلاد ، يُسيّرون الشؤون باسمهم ، ويُنفّذون الأوامر التي تُملى عليهم ، ويُقدّمون لسادتهم خيرات بلادهم ، ويقتلون كل من يُريد أن يمنع هذا أو ذاك .

وصول الجهال

بدأ الناس باختيار أهل الحكمة والرأي - حسب نظرهم والمفاهيم التي كانوا يعيشون عليها - ليُسيّروا شؤونهم ، وليرجعوا إليهم إذا ما احتاجوا إلى ذلك ، فكان هؤلاء القادة يسيرون بأتباعهم بروية مقبولة ، ورأي مسموع ، فلا يسمح بشيوع ما يُخجل منه ، ولا ذيوع ما يُحبّ الناس في كتمانه ، أما ما يحدث وراء ذلك فكثير معروف ولكن دون ظهور مكشوف ، ولكن الجهّال لا يرغبون في هذا إذ يُريدون أن يرتعوا في الأموال والأعراض دون أن يكون هناك معترض على تصرّفاتهم ، أو قوي يقف في وجههم لذا أخذت مصالحهم تلتقي بعضها مع بعض ، وأخذت تدفعهم إلى أن يكون منهم المتحكّمون المتصرّفون ، وبيدهم المقدّرات ، فيفعلون ما يشاءون دون مُحاسب أو رقيب . وقد اتّخذ وصولهم إلى ما يُخطّطون له أشكالاً مختلفةً :

أولا - القرامطة :

كان الأفراد الذين يرغبون في تأمين شهواتهم ينظرون إلى القادة في المجتمعات المادية نظرة حقدٍ وحسدٍ ، إذ يرون أو يظنّون أنهم يُحقّقون شهواتهم بالصورة التي يتصوّرونها هم ، فالسلطة بأيديهم ، والمال في حوزتهم ، وبهاتين الوسيلتين يُمكنهم تأمين ما تهوى أنفسهم ، فالنساء بهذا ملك أيديهم ، لأنهن غالباً لا يسعين إلاّ إلى المال ، وهو عندهن كل شيء ، ولذا يبعن أجسادهن في سبيل الحصول عليه ، وذلك حسب المفهوم المادي، والحياة البهيمية ، أما هم فلا يملكون المال لتأمين شهواتهم وأهوائهم ، وليست لديهم القوة الضاغطة لتنفيذ رغباتهم ، لذا فقد نشأ عندهم حقد على الحاكمين ، وعلى الأثرياء ، ورغبة في منافستهم للحصول على ما يشتهون ، ولكن أنّى لهم بالمنافسة ، وهم لا يملكون شيئاً . وأخذت تظهر من أفواههم كلمات تُشير إلى ذلك ، وتبدو من سلوكهم أعمال تدلّ على ما تُخفي نفوسهم من رغباتٍ وأحقادٍ ، وتعرّف بعضهم على بعضٍ بالأحاديث واللقاءات ، فتآلفت القلوب ، واتّحدت الأهداف فتمنّوا وأملوا في أن يترك الحبل على الغارب ليفعل كل ما يُريد ، ويتصرّف كما يحلو له ، ورغبوا أن تكون هناك

شيوعية في النساء والأموال ، وهو كل ما يحلمون به ويعملون له ، ولكن إذا حصلوا على الأموال باديء ذي بدءٍ بالشيوعية فكيف يُحافظون عليها بتقاعسهم، ورَفْض الآخرين للعمل بعد ذهاب أموالهم ، وقد حصلوا عليها بالتعب وبذل الجهد ، ثم أخذت منهم حسب الأهواء والأطماع ؟ ووُجدت الرغبات بشيوعية النساء عند الكثيرين ، وكانت التصريحات وكأنها جسّ نبضٍ للجهّال .

كانت المناداة بشيوعية المال والجنس منذ أيام اليونانيين القدماء ، وقال بها عدد من المفسدين والذين عندهم ميل للحصول على مُبتغاهم ، من غير كدٍ ولا جهدٍ ، غير أن الحاكمين حالوا دون ذلك بما يملكون من سلطةٍ ، كي تبقى لهم الهيمنة ، فلا يُنازعهم عليها أحد ، ولتبقى وسائل تحقيق الشهوة ، وهي النفوذ والقوة والمال ، تحت تصرّفهم وحدهم ، ويُساند أصحاب المال عادةً أهل الهيمنة حرصاً على مصالحهم ، فقارون كل زمنٍ مع فرعون ، ولا يمكننا أن ننفي تماماً جوانب الخير عند بعضهم حيث لا يرضون عن انتشار الفحش والفساد لذا يقفون في وجهه كعنصر شرٍّ .

ولكن إذا التقى عمال جهّال ، فقراء طامعون ، شباب حاقدون، عندهم حيوية مُتّقدة ورغبة جامحة إلى الجنس يمكنهم أن يُؤثّروا على المجتمع ، وربما استطاعوا السيطرة على مُقدّراته ، وهذا ما حدث جنوبي العراق ، وشرقي الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، إذ وجد العمال الشباب بكثرةٍ ، بعيدين عن أهليهم ، وحرّك كوامن نفوسهم تصرّف الملاك ، وإثارة المغرضين فكانت حركة القرامطة في تلك المناطق إذ استطاع تجمّع أولئك الجهّال أن يُسيطروا على جهاتهم ، وأن يُنفّذوا رغباتهم ، حيث انطلقوا كالسوائم الجائعة في المراعي الغضّة النضرة وقد تفلّتت من عقالها ، فأخذوا يفعلون كل ما يُريدون ، يسعون وراء شهواتهم بنهمٍ ، ويسطون على الأموال بجشعٍ ، ويفعلون المحرّمات دون وازعٍ ، فانتشر الفساد وعمّت الفوضى ، وساد الجهّال ، واتجه نحوهم أمثالهم فكانت لهم الغلبة على المجتمع ، وانضمّت إليهم الأعراب فسطت على القوافل ، وأغارت على الحضر ، وهذا مُبتغاها ، وأملها ، وكانت لا تستطيع في الماضي لأن السلطة تمنعها من ذلك ، وتُعاقبها إن فعلت ،

أما الآن فلا سلطة ، وإن وجدت فهي بجانبها ، وارتكب الأعراب أبشع الجرائم وأشنع الأعمال ، وكلها تدور في دائرة الجنس والمال ، ولنذكر قتلهم الحجيج ، وإلقاء الجثث في بئر زمزم حقداً ، ونهبهم للأموال ، وهتكهم للأعراض . وكان المفسد يتقرّب إلى السلطة القرمطية ، بسوء أفعاله ، ووحشية أعماله ، وكلما كان أكثر قذارةً ، وأسوأ فعلاً كان من المقرّبين ومن بطانة السوء المعروفين ، ولنستمع إلى أحد الشعراء من بطانة السوء لزعيم القرامطة في اليمن ، وهو علي بن الفضل المتوفى ٣٠٢ هـ ، وفي قوله ما يجول في نفسه ، وما يرغب به سيده ، فالأزلام لا ينطقون إلاّ بما يُريده سادتهم .

خذي الدفّ يا هذي والعبي	وغنّي هزاريك ثم اطربي
تولّى نبيٌّ بني هاشمٍ	وهذا نبيّ بني يعرُب
لكل نبيٍّ مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي
فقد حطّ عنا فروض الصلاة	وحطّ الصيام ولم يُتعب
إذا الناس صلّوا فلا تنهضي	وإن صُوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب
فلم ذا حللت لهذا الغريب	وصرت مُحرّمة للأب

أليس الغراس لمن ربّه　　وسقاه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السما　　حلال فقُدّست من مذهب

ويُسخّر الجهّال النساء لأنفسهم ، كما يُسخّرونهن لكسب الأتباع ، ويُثيرون ذوات الشهوة الجامحة لإلقاء أنفسهن في أحضان الرجال لربح الأعوان والمؤيّدين ، ولنستمع إلى قرة العين «فاطمة بنت صالح القزويني» وهي تخطب في حفلٍ كبيرٍ من الرجال في قرية (دشت) قائلةً : أيها الأحباب والأغيار ، اسمعوا وعوا ، إن أحكام الشريعة المحمّدية قد نُسخت بظهور الباب ، وإن أحكام الشريعة الجديدة لم تصل إلينا بعد ، فكل عملٍ الآن بما جاء به محمد هو لغو باطل ، لا يأتيه إلا كلّ غرٍّ جاهلٍ .

إن الباب سيفتح البلاد ، ويُسخّر العباد ، ويُخضع أقاليم الأرض ، ويُوحّد الأديان في طولها والعرض ، فلا يبقى إلا دينه القويم ، وصراطه المستقيم ، وشرعه الذي لم يبلغنا منه إلا هذا النزر اليسير ، وذلك القدر غير الكبير ، فلا أمر اليوم ولا تكليف ، ولا نهي ولا تعنيف ، فنحن الآن في زمنٍ الفترة، فاخرجوا من الوحدة إلى الكثرة ، ومزّقوا هذا

الحجاب الذي بينكم وبين النساء، وفكّوا عنكم قيود هذه العادات الشنعاء ، وشاركوهنّ في الأفعال والأقوال ، ولا تمنعوهنّ الحقّ من مُشاركة الرجال ، وأخرجوهنّ من الخلوة إلى الجلوة ، وواصلوهن بعد تلك الجفوة والسلوة ، فما هنّ إلا رياحين خُلقن للشمّ ، وتصاوير جُعلن للثم والضمّ ، ولا بدّ من قطف الريحانة وشمّها ، ولثم صورة الحبيب وضمّها ، دون أن يُحدّد عدد الشامّ ، أو يُكيّف كمّ اللاثم والضامّ ، فالريحانة تُجنى وتُقطف ، وصورة الحبيب تُهدى وتُتحف . أما المال فمشاع غير مقسومٍ ، فيه حقّ للسائل والمحروم ، جُعل للناس سواء بسواء ، لا للأغنياء دون الفقراء ، فادفعوا الفاقة عندكم بهذا الذهب ، وشاركوا بعضكم بعضاً في المال والنشب ، وساووا في ذلك بين فقيركم وغنيكم ، ولا تردّوا من يطلب التمتّع بحلائلكم أو بناتكم ، فلا نهي اليوم ولا أمر ، ولا تكليف ، ولا حدّ، ولا زجر ، فخذوا حظّكم من هذه الحياة ، فلا شيء بعد الممات .

وكانت هذه الفاجرة تقول بزواج تسعة رجالٍ من امرأةٍ واحدةٍ.

واستمرّت سيطرة جهّال القرامطة مدةً ليست بالقصيرة حتى قُضي عليهم بقعةً إثر بقعةٍ بعد أن ضجّ الناس من أفعالهم وامتلأوا عليهم غيظاً ، ومن سوء أعمالهم حنقاً فتحرّكت النفوس الخيّرة ، ودعمتها عامة الشعب فانتهوا منهم .

وهكذا تكون نتيجة سيطرة الجهّال من الحاقدين وأهل الشهوة ، ويجب أن نحذر دائماً من أمثال هؤلاء وتجمّعاتهم ، ودعوات الاختلاط التي تنطلق من أفواههم كتعبيرٍ أوليٍ لرغباتهم، فهم جهّال وإن نالوا أعلى الشهادات، وحصلوا على أكبر المراكز ، فإن في نفوسهم حقداً ، وفي قلوبهم كيداً على الأخلاق والفضائل ، وإذا سيطروا زالت القيم ، وتبدّلت المفاهيم ، وانقلبت الحياة إلى بهيميةٍ وفوضى . وتكون سيادتهم بانطلاقتهم نحو شهواتهم دون وجود خوفٍ من الله، مع استهانةٍ بالناس ، ومن غير مبالاةٍ بما يقال عنهم ، ومع ازدراءٍ بالآخرين ، واستهتارٍ بالقيم ، ودون اهتمامٍ بما ينال الناس من سوء أفعالهم ومن جرائمهم الشنيعة ، ويسود معهم ، وتحت إشرافهم ، وبتأييدٍ منهم أمثالهم . أما أهل العلم ، وأصحاب الخلق

والمروءات فينزوون ، لا يهتمّ بهم أحد، ولا وزن لهم ، يتحكّم بهم الأشرار ، وأهل السوء، وينشر المسيطرون الشائعات ضدّهم ، ويُطلقون الافتراءات عليهم، حسداً من عند أنفسهم ، واستكباراً في الأرض ، وتطاولاً على الله ، وهم الأذلّة ... ويُسرع الذين في قلوبهم مرض لتقليد الجهّال ذوي المكانة في دولة الفسق لتعلو منزلتهم ... وهكذا يُصبح الوضيع ، الحقير ، الذليل ، المفسد ، ذو النفس الخبيثة صاحب كلمةٍ مسموعةٍ ومكانةٍ مرموقةٍ ، ويغدو الرفيع ، عزيز القوم ، المصلح ، صاحب النفس الطيبة في مؤُخّرة الركب ، يحتاج إلى عطفٍ ، ولكن لا يجده ، وإلى شفقةٍ من غير أن يلقاها حتى تغيّرت النفوس .

ثانيا ـ العمال :

يبذل العمال جهداً كبيراً في عملهم ، ويجدون مشقّةً في سبيل الحصول على قوتهم وقوت عيالهم ، وأثناء قيامهم بالعمل ، وبذلهم الجهد ، وملاقتهم العناء وتقديمهم العطاء ، يرون صاحب العمل يحصل على نتاج جهدهم ، وحصيلة عملهم ، دون أن يبذل ما يبذلون ، ومن غير أن يُقدّم ما يُقدّمون ، بل دون أن يقوم بأي شيءٍ ـ حسب ما يرون ـ ، فإن لم يكونوا مؤمنين ، وهو غالبية عُمّال اليوم ، لم تكن عندهم القناعة بما رزقهم الله ، والرضا بما قدّر لهم ، يأخذ الحقد يغلي في نفوسهم ، والحسد يلعب في داخلهم ، ونظرة الكره تملأ قلوبهم . وإذا كان صاحب العمل أيضاً بعيداً عن الإيمان ـ وهو ما عليه الناس الآن إلا من رحم ربك ـ مُخالفاً لتعاليم الإسلام ، يتعالى عليهم ، ويُنغّص عليهم وقتهم ، ولايُعطيهم حقوقهم كاملةً ، لايُعاونهم إن كلّفهم ما لايُطيقون ، ولا يجلس إليهم وقت راحتهم ، لا يأكل معهم إن أكلوا ، ولا يشرب معهم إن شربوا ، ولا يعطيهم حقّهم قبل أن يجفّ عرق جبينهم ، لا يمنحهم إن كان هناك ما يستدعي المنحة ، ولا يُقدّم لهم في المناسبات

ما يستوجب على الرحماء . إذا لم يكن الإيمان يملأ قلوب الطرفين من العمال وأصحاب العمل ، وهي حال أكثر المجتمعات اليوم ، إن لم نقل كلها ـ مع الأسف ـ وقعت الجفوة بين الطرفين ، والكراهية بين الفريقين . وإذا ما وجدت جماعة تنفخ في نار الخصومة ، وتُثير النقمة كانت الفرقة ، والعمال أكثر عدداً ، وأكبر إمكاناتٍ ، ولديهم حماسة ، وغالبهم في سنّ الشباب حيث الطاقات .

ولما كان العمال أكثر عاطفةً ، وأكثر حاجةً ، مع جهلٍ قائمٍ لذا يمكن أن يُستغلّوا ، ويمكن لكل فئةٍ أن تُسيّرهم وراءها . فإذا كان أصحاب العمل قد استغلّوهم في الماضي ـ على زعم المغرضين ـ فإن جهةً أخرى تستغلّهم اليوم ، وتُحرّكهم حسب أهوائها ، وهم لا يدرون ، ولا ينتبهون حتى يرون أنفسهم في الأغلال مُقيّدين ، يبحثون عن اللقمة فلا يجدونها ، وعن الثوب فلا يلقونه ، وعن الراحة فلا يعرفون لها طعماً ، وقد قاموا من أجلها ، وتحرّكوا باسمها ، واستغلّهم ساداتهم تحت شعاراتها ، وتسلّطوا تحت عنوانها ، فاستغلالهم هنا كاستغلال القرامطة لأتباعهم ، غير أنه هنا بنظامٍ أو بقيودٍ ، وهناك

بفوضى وانطلاقٍ. وإذا كانت القرامطة تُنادي بشيوعية المال والنساء حسب الأهواء فإن المستغِلّين اليوم يرفعون شعار اشتراكية المال عن طريق السلطة ، والنساء عن طريق الرضا .

وجدت هذه الجماعة المستغِلّة ، وهي إما من اليهود الذين يعملون على أن يبقى الصراع قائماً في المجتمعات ليمصّوا دماءها ببيع السلاح للطرفين ، والمتاجرة بالمواد للجانبين ، ويبقون سادة الفريقين ، ويرجع إليهم الخصمان بكل أمرٍ ، وتكون بأيديهم جميع خيوط العمليات . وإما أن تكون هذه الجماعة المستغِلّة من الانتهازيين الذين يرون استغلالهم للعمل أمراً أساسياً ، إذ تقوم عليه زعامتهم ، وتُبنى عليه أطماعهم، وتُحقّق عن طريقه كل أحلامهم وآمالهم ، وأنهم إن لم يستغلّوهم هم ، ويكونوا زعماء على أكتافهم وجهودهم فإن غيرهم سيستغلّهم ويكونون قادةً ، ويبقون هم من الأدنين والرعاع ـ حسب زعمهم ـ. ولما كان كل امرئٍ يُفضّل أن يكون رأساً ، ويكره أن يكون ذنباً ، لذا يُحبّ استغلال العامة، ويكون سيداً بينهم خوفاً من أن يسبقه غيره ويكون تبعاً ، وعرفت إنساناً حمل آراءً لا يُؤمن

بها ، فسألته عن هذا الاتجاه الذي يسير فيه ، فأجاب إن أتباع هذا الاتجاه كالسوائم ولا بدّ لهم من راعٍ يقودهم ففضّلت أن أكون أنا ذلك القائد من أن يكون غيري ، وأبقى أنا هملاً .

استغلّت فئات ماكرة العمال في بعض الدول ، فتحرّكوا لصالحهم ، وهم يظنون أنهم يعملون لأنفسهم ، ولكثرة العمال ، وإمكاناتهم ، وحماستهم ، استطاعوا وضع اليد على السلطة ، وليت الأمر اقتصر على العمال فهولاء لهم أعمال ، ويعرف أكثرهم النظام ، ويتقيّد به ، ويعرف الطاعة ، ويتمسّك بها ، وإن كان لا يُقيم لهذا وزناً إذ يعدّه من وضع السلطة السابقة المستغلّة والمخالفة له ، والتي سبق أن طحنته ، فيجب عليه الآن سحقها ، ومع هذا فإن هؤلاء عندما تهدأ الأوضاع، وتستقرّ الأحوال ، ويشعرون بالظفر يُمكنهم الانصياع للأوامر مادامت تأتي - حسب زعمهم - منهم أنفسهم ، أو باسمهم ، إذ هكذا عُلّموا ولُقّنوا . ولكن الأمر الأشدّ صعوبةً أن هناك من بين من انخرط في الحركة أناساً لا عمل لهم ، ولا يعرفون شيئاً عن النظام ، وليسوا على استعدادٍ لطاعة أحدٍ ، وقد مُلئوا

حقداً ، ويظنون أنفسهم أنهم عماد الحركة ، وأساس نجاحها ، والواقع أن الفئات الماكرة قد استغلّت هؤلاء أسوأ استغلالٍ لما يحملون في نفوسهم من كراهيةٍ للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وللحاجة الملحّة عندهم للأخذ والنهب ، فهم عاطلون لا يعملون ، يدفعهم الجشع إلى جمع كل شيءٍ ، وضمّ كل شيءٍ إليهم .

سيطر الجهّال على الوضع ، وتسلّم الأمر الذين بيدهم خيوط اللعبة ، واستمرّوا في استغلالهم للجهّال ، إذ وضعوا أيديهم على أموال وأملاك الأثرياء باسم السلطة ، ولما كانوا هم السلطة لذا أصبحت الأموال تحت تصرّفهم ، كما تسلّموا كل الموارد ، والمصادر ، وثروات البلاد ، وتجارتها بالأسلوب نفسه ، وسخّروا أولئك الذين ركبوهم مدةً من الزمن للعمل ، وطلبوا منهم المزيد من البذل والعطاء مادام كل شيءٍ للدولة ، وهم عمودها الفقري ، وأجبروهم على تسليم كل الإنتاج لتسعد الدولة .

أثرت الفئة التي تسلّطت على الناس باسم العمّال ، مادامت هي السلطة ، والسلطة تملك كلّ شيءٍ ، وكلّ شيءٍ

في البلاد يقدّم لها باسم الحكومة التي هي المالكة لكلّ شيء ، وغدت هذه الفئة طبقةً خاصةً ثريةً تتصرّف كما يحلو لها ، ولكن باسم العمّال ، والفلاحين ، والكادحين و . . أما العمّال الذين تمّ كلّ أمرٍ باسمهم فلم يتغيّر وضعهم بل زاد سوءاً على الرغم من أن الأمور لاتزال تُساس باسمهم، وتُوقّع المواثيق باسمهم . . . ، وأخيراً انتبه العمّال إلى ذلك بعد مرور أوقاتٍ عصيبةٍ خاضوا خلالها حروباً قاسيةً على أمل الحصول على الحرية وعلى تحسّن الأوضاع الاقتصادية بعد مرور مرحلة الحرب ، ولكن ما أن انتهت حتى بدأ سباق التسلّح، لذا لا يُمكنهم أبداً أن يشمّوا رائحة الحرية ، ولن يذوقوا طعمها ، كما لن يعرفوا الحياة الكريمة التي يسمعون بها في باقي دول العالم التي لا تأخذ بهذه الآراء التي يسيرون عليها ، وبدأت عندهم الحماسة للحركة ، ولكن كيف يستطيعون ذلك ، والسيف مصلت فوق رقابهم باسمهم ؟ وما هي الوسيلة التي يُمكنهم أن يلجؤوا إليها ، والضغط يكاد يسحقهم باسمهم ؟ .

لقد أخذ فريق منهم طريق التزلّف إلى الوضع الجديد ، وغدوا مُراقبين على رفاقهم بالأمس ، ويعيشون على بقايا

فتات الفئة الطاغية الجديدة ، وعمّت الوضى حيث وُضع الناس في أماكن غير مُناسبةٍ لهم بحجة حماية مكاسب العمّال فتعطّلت آلية العمل، وبُدّدت الثروة . وأما الفريق الآخر، وهو الأكثرية ، فقد انكفأ على نفسه ، خائفاً مذعوراً ، يعمل بحذرٍ ، ويتحرّك بحذرٍ ، وينام على وجلٍ ، يُحسّ بالحزن، ويكاد يقتله الأسى مما يُعاني ، ومن الأسلوب الذي يعيش به ، ولم يعد قادراً على الإنتاج بشكلٍ جيدٍ للضائقة النفسية التي يحياها إضافةً إلى الناحية المادية التي يُقاسيها، إنه لا يأخذ إلا ما يسدّ به رمقه ، وحسبما يُراد له ، ولا يستطيع توفير شيءٍ لمستقبله أو لأولاده الذين هم لم يعودوا ملكه بل للدولة ، وهذا كلّه يُخالف الفطرة البشرية . لقد كان في الماضي يأخذ أجراً زهيداً ربما لا يتناسب مع الجهد الذي يبذله ، ولكن يُدبّر به أمره ، وربما يقتصد منه قليلاً يعدّه لأبنائه من بعده أو لمستقبله ، أما الآن فلا هذا ولا ذاك.

عمّت الفوضى وساد الجهّال ، وتحكّموا بالعباد ، وتأخّر الإنتاج ، وضاع سبب هذا التأخير مادام العمل جماعياً ، ومادام للغير ، ومادام الاهتمام لدى المشرفين مفقوداً ،

وبالتالي تهدّمت الفكرة من حيث المبدأ ، وضاق أصحابها بها فتفجّرت من الداخل حيث قُضي عليها ، وانتهت كما انتهى القرامطة ، ولكن بعد أن عمّت الفوضى ، ورفُع الحقير ، وبرز اللئيم ، وديس على الرفيع ، وحُطّ شأن أهل العلم ، وتفكّكت البنية الاجتماعية حيث لم يعد للأسرة كيان ، والمرأة ملك من تهوى أو من يُغريها رضي زوجها أم أبى إذ لا ولاية لأحدٍ عليها ، واقتصر تملّك المال على المستغلّين ، وكذا كلّ وسائل الحياة .

وهناك سلطات رفعت من هذا الفكر شعاراً ، وبقيت تُمارس ما اعتادت عليه ، تُسكت العمّال بالشعار الذي تنادي فتضلّلهم ، وهم جهّال ، وتُسكت أصحاب العمل بما تُطبّقه ، وغدت هذه السبيل عنواناً لكثيرٍ من الدول المتخلّفة ، فالأمر فوضى في كل جوانب الحياة إذ يُؤخذ من كل نظامٍ جانب ، فأصبح النظام العام مُرقّعاً غير معروف الأصل ، وغير ظاهر الهدف ، ودون منهجٍ ، يُنهب باسم هذا الجانب، ويُسلب باسم ذاك .

ثالثا ـ أصحاب الأموال :

الأساس في المال أنه وسيلة لتأمين الحاجات الأساسية في الحياة ، وتكون الرغبة في زيادته إنما هي لزيادة الرفاهية ، وأخذ جزءٍ من النعيم في هذه الدنيا ، ويجب ألا يزيد ذلك على حدودٍ معينةٍ تصل إلى حدّ الترف والتبذير بل والسفه أحياناً ، غير أن بعض الناس أصبح يعدّ المال غايةً في حدّ ذاته ، ويجنح إلى جمعه وتكديسه تحقيقاً لجموح نفسه إلى ذلك ، وقد يموت والمال مُكدّساً في خزائنه ، ولم يكن في حياته يرغب في إخراج شيءٍ منه خوفاً من نقصانه ، بل يسرّ في النظر إليه مجموعاً . ويحرص بعضهم الآخر على جمع المال والإكثار منه لتحقيق شهواته من جنسٍ وسيادةٍ وتسلّطٍ ، وقيل قديماً :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم   لم يُبن ملك على جهل وإقلال

وعدّ بعضهم أنه لا خير في هذه الدنيا ولا عزّ لمن قلّ ماله . وقال عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإني   رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم   وإن أمسى له نسب وخير
يباعده القريب وتزدريه   حليلته وينهره الصغير

وتلقى ذا الغنى وله جلال   يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جمّ   ولكن للغنى ربّ غفور

ولكن هذا الكلام مرفوض فإن كثيراً من الأنبياء كانوا فقراء ، وهم من خيرة الخلق ، وإن عدداً من الزعماء والقادة لم يكونوا أصحاب مالٍ وأملاكٍ ، وإن بعض السادة عاشوا على الكفاف ، ولكنهم سادوا بالحكمة والعلم ، ورفعهم الناس بالأخلاق ، وطاعة الله ، وعدم النظر إلى ما عند الآخرين ، كما رفع السابقين الشجاعة والكرم . ولا تباين بين الفقر والكرم ، فالكرم أن تجود بما تملك وألا تبخل بما تستطيع عليه ، وليس أن تُعطي بما لا تقدر عليه وتذهب بعدها للسؤال أو التعدّي وأخذ ما ليس لك لتعوّض عما فقدت ، وتجود لآخرين بما استحوذت عليه ظلماً . ومن الكرم السماحة مع أخيك ، والصراحة مع مُحدّثك ، والبشاشة في وجه ضيفك ، ومن البخل التشدّد في مُعاملتك ، وعدم الصدق في القول ، وقلّة الابتسامة لزائريك.

وصحيح أن الزعامة لا تكون مع البخل ، والجبن ،

والجهل ، ولكنها مع الكرم ، والشجاعة ، والعلم ، والكرم هنا بالمعنى الذي ذكرت لا بمفهوم الغنى والعطاء ، والشجاعة لا تعني التهوّر والاعتداء والظلم ، ولكنها بالحقّ ، وعند اللقاء ، وفي الشدائد حيث تبدو العزيمة ، وقوة الأعصاب ، والاتزان، والمحافظة على الوقار والهدوء ، ولا يعني العلم الشهادة ، ومعرفةٍ مادةٍ أو اختصاصٍ ، وإنما مناقشة الأمور ، وسلامة المنطق ، وإدراك الحديث ، وتفهّم الموضوع ، وإسداء النصح، وتقديم الرأي الصحيح في الوقت المناسب .

وإذا كان بعضهم يرغب بالمال من أجل الزعامة فإن أغلبهم يرغب بذلك حبّاً في تحقيق السيطرة ، والتعالي ، وتأمين الشهوة ، بل أضحى في كثيرٍ من الأحيان لايعرف المرء ، هل الرغبة بالمال من أجل السيطرة أم أن السيطرة أملاً في جمع المال ؟ وهل كلاهما من أجل التفاخر والحصول على الشهوة على أوسع نطاقٍ بل وفي أبشع الصور ؟ إن الأمور مُختلط بعضها مع بعضٍ . وعلى كل الأحوال فإن الكثير يعمل ويحرص على جمع المال ، ولا يرى هناك أيّة موانع لاتخاذ أي وسيلةٍ لتحصيله كما أنه

ليست هناك وسائل مشروعة وأخرى غير مشروعةٍ ، فالكلّ سواء ، والكلّ مُباح ، والكلّ مسموح به ، بل لا يصحّ وضع أي حائلٍ لتصرّف الإنسان في الحصول على المال ، وبالصورة التي يختارها ، حيث للمرء الحرية التامة في اتخاذ كلّ الوسائل لتحقيق ما يُريد ويرغب ، واتّخذوا من هذا المنطلق شعاراً يعملون تحته ، أطلقوا اسم الحرية المطلقة التي لا حدود لها ، وليس في موازينهم شيء يُسمّى خلقاً ، أو قيماً ، أو شرعاً ، أو أي شيءٍ آخر ، وإنما هناك حرية وكفى ، فكلّ شيءٍ جائز ، وأصبح الذي يجمع المال ولو بالحيل ، والكذب ، والحرام ، يُسمّى ناجحاً أو ماهراً ، وذا إمكاناتٍ ، ورجل أعمالٍ و .... .

إن هؤلاء الجهال من أصحاب الثروات الذين هم من اتجاهٍ واحدٍ أو هدفٍ واحدٍ ليحرصون أشد الحرص على أن تكون السلطة بأيديهم يُصرّفون الأمور كما يُريدون ، وتكون لهم الحرية المطلقة فيما يفعلون ، ويكون التحرّر من كلّ قيدٍ حتى يتمّ لهم ما يُخطّطون له ، ويُساعد بعضهم بعضاً على هذا ، ويتعاونون معاً ليكون حلّ الأمور وتسييرها بأيديهم ، ثم يعملون على المحافظة على ذلك ،

والدفاع عن هذا الرأي لذا ينتشر الربا ، وتعمّ الفواحش ، ويكثر الاحتكار ، ويسود الاستغلال ، وهذه النقاط هي أهمّ مُقوّمات نظام هؤلاء الجهّال الذين لا يعرفون إلا المادة أساساً لمفهوم الحياة ، كما أن هذه النقاط تعدّ أهمّ مصادر جمع المال فتنشأ في المجتمع فئة مُتخمة مستغِلّة ، وفئة مسحوقة مستغَلّة ، أناس في أشدّ حالات الترف والبطر ، واستغلال الآخرين بأموالهم، وتسخيرهم بأمورهم، واستعبادهم ، بل والتصرّف في أبنائهم ونسائهم على أنه حقّ لهم ، وآخرون لايجدون حاجاتهم الأساسية من طعامٍ ، ومأوىً ، ولباسٍ ، حتى إنهم ليعيشون على هامش الحياة ، وكأنهم من سقط المتاع . ونساء يحصلن على المال ، ويقمن بأعمال الدعاية ، والتجسّس ، والمرافقة على حساب أجسادهن على أنهن عشيقات أو خليلات ، وكأنهن لعب للتسلية يقضي الرجال بهنّ وطرهم ، وذلك باسم الحرية أو حقوق المرأة المكتسبة بعد سلبها منهنّ ، وأخريات ممن لم يُؤتين حظاً من الجمال لا يجدن ما يكسبن قوت يومهنّ ، حيث تُعرض عنهنّ شركات الدعاية ، ويبتعد عنهنّ رجال المخابرات ، وينفر منهنّ أهل الفن ، إذ لم تتوفّر فيهنّ

المواصفات المناسبة لتقديم أجسادهنّ والتي تحتاجها تلك الأعمال .

إن الحياة عبيد وسادة ، عبيد دون ذنبٍ ، وسادة من غير حقٍّ ، ومُتسلّطون دون مؤهّلٍ ، يُقرّبون ويُحكّمون أمثالهم ، ويُسلّطون أعوانهم على المجتمع وهم ليسوا بأكفاء ولا أهل ، ويبعدون أهل الرأي والفكر ، وأصحاب والعلم فينتشر الفساد ، وتتحكّم الفوضى ، وتشرئب أعناق أراذل القوم للمباهاة ، وتنخفض هامات الرجال ، وتتراجع الأمة ، وتتأخّر عوامل النهضة ومقومات الحياة .

رابعا ـ الجند :

كانت للرجل الشجاع من القديم مكانة خاصة بين أفراد قومه أو أبناء قبيلته ، وكثيراً ما كان يُقال عنه المدافع عن القبيلة ، أو حامي حماها ، أو فارس القبيلة ورجلها في تلك الأيام التي عُرفت بالغارات ، واتصفت بالغزو الدائم ، وبالتالي يُصبح الفارس بارزاً ومعروفاً بين أفراد القبيلة جميعاً ، ويكون موضع الفخر للجميع بين العشائر كلها . وقد يُبدي لمكانته التي اكتسبها آراءً تُخالف آراء الشيوخ ،

ويُحاول تنفيذها ، وربما لا يستطيع أحد معارضته لما عُرف عنه من قوةٍ وشجاعةٍ إذ يخشونه ، ويقف الكثير إلى جانبه لأنهم يعدّونه حسب أعرافهم يومذاك مُكسب النصر ، ومُسبّب الهزيمة للخصم .

وفي العصر الحديث أصبحت الجندية مهنةً خاصةً تُلازم من احترفها طول حياته ، وغدا للقادة منهم (الضباط) زيّ خاص ، واعتناء خاص باللباس ، والحذاء ، فكان الواحد منهم يسير في المدينة بين الناس ، وفي حيّه بين معارفه يتباهى بلباسه ، أو بمشيته المعيّنة وقرع نعاله ، أو بأوسمته التي تُظهر مكانته ورتبته ، ويظنّ بنفسه أنه ذو منزلةٍ عاليةٍ ، ويُريد أن يلفت نظر الناس إليه ، ويعتقد أنهم يغبطونه على هذه المكانة ، ويحسدونه على تلك المنزلة ، ويقتنع بنفسه أنها رفيعة مرموقة ، لذا يُريد أن يُطاع إذا تكلّم ، ويُسمع له إذا أمر ، ويُبعد له الناس إذا مشى ، وخاصةً أنه تعوّد أن يُطيعه الجند في الثكنة ، وكل من هم أدنى منه رتبةً حسب الأنظمة المُتعارف عليها في دول العالم ، وخاصةً الفقيرة منها لذا يكون للضابط نظرة معينة مع الفقر ، ووضع خاص مع الضعة والمهانة التي يُعانيها السكان ، لذا ليس

غريباً أن يُفكّر العسكريون في كثيرٍ من الأحيان في السيطرة على مُقدّرات البلاد والتسلّط عليها ، وخاصةً في مثل تلك البلدان الفقيرة و يُشجّعهم على ذلك الوضع الذي هم فيه من القوة ، وما يملكونه من طاعة الجند لهم والذين يُنفّذون أوامرهم ، ويكونون الوسيلة للضرب ووصول ضباطهم إلى ما يحلمون به كما يدفعهم إلى ذلك الظهور في سبيل الحصول على الشهوة والمتعة وتحقيق كل رغبات النفس إذ أن معظمهم في سنٍّ تدفعهم إلى ذلك دفعاً ، كما يُحبّون لفت النظر إليهم ، وهذا ما اعتادوا عليه ، ولكن تقف عادةً في وجههم الأنظمة التي تحول دون ذلك أو تمنعهم من القيام بما يُريدون ، وربما كان هذا من جملة ما يسعون إليه إذ يرغبون في تحطيم تلك الأنظمة وإزالتها ليتسنّى لهم التصرّف كما يحلو لهم . فإذا ما تضعضعت تلك الأنظمة أو تهلهلت لضعف القائمين عليها ، أو لضعفها بالأصل ، وقد تكون كلتا الحالين معاً ، عندها يقومون لتنفيذ ما يحلمون به ، ولذا فإن أكثر ما نجد تسلّط هؤلاء الجهّال إنما يكون في البلدان المتخلّفة ، أو ذات الأنظمة المرقّعة ، والتي لا استقرار فيها ، أو التي يعمل الساسة

فيها لمصلحتهم لإبراز أحد العسكريين كثيراً ، فإذا برز لا بدّ له أن يتحرّك في مثل هذا الاتجاه مهما كانت الأنظمة ، وربما لاحظنا ايزنهاورفي الولايات المتحدة ، وديغول في فرنسا حيث رفعتهم رتبهم العسكرية ، ودورهما الكبير الذي لعباه في الحرب العالمية الثانية فإذا بهما رئيسا دولتيهما بعد الحرب . وهناك أمثلة كثيرة وخاصةً في البلدان الفقيرة حيث كثيراً ما نسمع عن الانقلابات العسكرية والتغييرات المفاجئة .

ومنذ صدر الإسلام لاحظ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا ، وقد برز خالد بن الوليد رضي الله عنه في القتال ضدّ الفرس والروم ، وأراد الخليفة أن يُعطي درساً للمسلمين في أن القائد مهما علا فإنه مرتبط بالخلافة ، أو بما يُسمّى اليوم بالإدارة المدنية ، ولا يحقّ لها تجاوزها أبداً . وقد طبّق الخليفة هذا الدرس على خالد بن الوليد الذي لمع نجمه لما أبداه من شجاعةٍ في الحروب ، وفنٍّ في القيادة ، ومعرفةٍ في أسلوب القتال، وعلمٍ في إدارة المعارك ، ولكن عمر رضي الله عنه لم يُطبّق هذا الدرس إلا على رجلٍ مؤمنٍ، عميق الإيمان ، مطيعٍ بفطرته العسكرية ،

ولو لم يكن كذلك لما أمكن أن يكون ساحةً للتجربة وقدوةً لأخذ الدروس منه لأنه ربّما خرج على الأوامر ، وعصى التعليمات ، وأخذت النفس حظّها ، أو خافت على مصيرها ، ففكّرت بالخروج على الخليفة . وقد أُعطي هذا الدرس مرتين للمسلمين أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي كلا المرتين كان التطبيق على خالد بن الوليد رضي الله عنه المرة الأولى في اليرموك ، والثانية في قنسرين . فكان عمر نعم المربي ، وكان خالد نعم الجندي و . . . وهذا ما يجب أن يكون على مدى التاريخ .

إن الجهّال من العسكريين إذا تسلّموا السلطة سارت الأمور في غير طريقها الطبيعية ، إذ تعوّدوا ـ كما ذكرنا ـ على سماع الجنود لهم دون مناقشةٍ ، ولم يتعوّدوا على سماع النصح أو النقد ، عرفوا التعالي، ولم يعرفوا التواضع، درجوا على التنفيذ ، ولم يدرجوا على السياسة والأخذ والردّ ومُعالجة الوضع ، شغلوا فكرهم بالنظر إلى مشيتهم وأحذيتهم ، ولم يشغلوها في جمال الحديث وحسن المنطق و . . . وإذا سارت الأمور بهذه الطريقة المعوجّة عمّت الفوضى ووُضعت الأمور في غير مواضعها ،

فاختلّ النظام ، وبرز من ليس أهلاً لذلك وساد ، وغاب عن الساحة صاحبها ، وخبير شؤونها .

وليس هذا سبيل العسكريين جميعاً ، وإذا كان ينطبق على أغلبهم ، فإن في بعضهم خيراً كثيراً إذا ما نشأوا نشأةً طيبةً من الأصل ، وتربّوا تربيةً حسنةً في بيوتهم ، وبين أفراد جماعتهم ، وربّما دخلوا السلك العسكري في سبيل الإصلاح ، وما قاموا به عندما قاموا إلا لهذا عندما عمّت الفوضى البلاد ، أو وقع المسؤولون في شراك الأعداء الذي نُصب لهم ، أو وقعوا فريسة الشهوة ، وهذا غالباً ما يحدث عندما لا تُنفّذ السلطة شرع الله في كل مجالات الحياة.

خامسا ـ غير المبالين :

قد لايصل رجل مُهمل إلى المسؤولية الأولى ، إن كان يُعرف عنه ذلك ، ولكن ربّما يتقاعس عندما يرتقي إلى ذلك المنصب ، أو يتوانى لكثرة ما يترتّب عليه من مهمّات فيصعب عليه القيام بها ، ولم يدر مشقّة ذلك العمل قبل أن يصل إليه ، أو جاءت أمور مُفاجئة لظروفٍ طارئةٍ فأربكت

أعماله ، وعلى كلٍّ فهذه أمور شاذّة لا يتوقّف المرء عندها كثيراً مادامت قليلةً .

ولكن الذي يحدث أن يصل إنسان إلى المسؤولية الأولى بعد أن يبذل الكثير من الجهد ، وبّما خوض غمار حروبٍ طاحنةٍ، وصراعٍ مع عددٍ من الجهات على عددٍ من الجبهات، فإذا ما كُتب له الوصول ، وأمكن قبضته ، وسيّر الأمور بشكلٍ جيدٍ ، ومهّد لمن يأتي بعده بالمحافظة على السلطان بما قدّمه ، وسهر على تنفيذه ، وضحّى من أجل ملكه سواء أكان ذلك لمبدأٍ يُؤمن به ، ومنهجٍ يعتقد بصلاحه ، أم للتحكّم والنفوذ ، فإذا ما انتهت أيّامه ، وورثه من بعده أبناؤه وأحفاده نسي المسؤولون الجدد ما بذله مُؤسّس دولتهم وباني مجدهم من جهدٍ وتضحياتٍ ، حيث نشأوا في عزّ السلطان ، وبحبوحة العيش والرخاء ، فيتراخون في مسك زمام السلطة، كأن يتولّى صغير ، أو يحكم ضعيف ، أو يتوانى الذي نشأ على الرفاهية ، وتربّى في أحضان الدلال ، وشبّ في الترف فلم يجدّ في طلب العلم ، ولم يهتمّ بأمور القيادة، فإن ما معه يُغنيه عن ذلك ، وإن ما يملكه يجعله بغير حاجةٍ للعمل ، بل ينصرف إلى

اللهو والملذّات مع صحبه من أمثاله والذين يجتمعون حوله من أصحاب المنافع والشهوات ممن يحرصون عليها بمعية ساداتهم ومشاركتهم فيها والغبّ منها، معهم ، أو على بقاياهم ، ولا يقتصر الأمر على فردٍ ، وإنما يشمل مجموعةً تكبر أو تصغر حسب عدد أفراد الأسرة الذين ينالهم نصيب من الأبهة والسؤدد ، ويحظون بألقاب التبجيل ، ويحصلون على الرفاهية والنعيم ، وهذا خاصةً إذا كانت البلد ذات خيرٍ وثروةٍ . فالعلم قليل لأن طلبه معدوم ، والكفاءة مفقودة إذ لا داعي لها ، وهذا ما يُؤدّي إلى الإهمال إذ المكانة تكفي ، والملك يُغني ، وما يقوم به الأتباع يُعوّض ، وقديماً قالوا : المال يُعلّم الكلام ، واللباس يْعلّم المشي . فيكفي المال ، واللباس ، والسلطان ليسير وراء المسؤولين مُتزلّفون ، مُطبّلون ، ومُزمّرون ، ومُدّعون بأن الوضع بأحسن حالٍ ، والناس بخيرٍ يدعون لصاحب الأمر، وأن النظام هو السائد ، والعدل هو المعمول به ، وقد يكون الواقع على غير ذلك ، ولكن من باب التزلّف ، والكذب لينالوا الرضا ، فيصدّق المسؤول كلام أعوانه ، وهم غير ناصحين له ، وهذا ما يجعله يتعالى ويضغط على الرعية ،

ويظنّ الناصح الناقد كاذباً لأنّ ما لديه من معلوماتٍ يُخالف ذلك .

وعندما تكون المؤهّلات غير مُتوفّرة يضطرّ المسؤول أن يستعين بآخرين بل لا بدّ له من ذلك لأن كثرة الأمور وتشعّباتها ومُشكلاتها لا يمكن أن يُحيط بها فرد واحد ، بل لا تكفيها جماعة ، فإذا كان المسؤول من المهملين ، من الجهّال غير المبالين فإنه لا يعرف حقيقة الآخرين ، ومقصدهم ، ولا يدري ما أمانتهم، بل لا يُفكّر بهذا ، وإنما يسرّه ثناؤهم الكاذب ، وتملّقهم الواضح ، وتزلّفهم الفاضح، ويُصدّقهم . وعندما يشعرون بحبّ سيدهم لهم ، وتصديقه ما يقولون ، ويحسّون بضعفه ، لا يقومون إلا بما يخدم مصالحهم ، ويزدادون رياءً ليبقوا في مراكزهم ، ويتقرّبون وهم على كرهٍ له في أنفسهم ، وإن ظاهرهم غير حقيقتهم ، إنّهم منافقون ، ولكن يُصدّقهم المسؤول لما يبدو منهم ، وللجهل الذي يعشعش في نفسه . كيف يكون مجتمع هؤلاء سادته ، وهؤلاء المتحكّمون فيه ، والمسيطرون عليه . إنهم يُسلّمون المراكز الحسّاسة لمن يخدم مصالحهم ، ويُؤمّن لهم حاجياتهم ، ولو كان جاهلاً ، فاسقاً ، خائناً ، ويُعطون

المناصب العليا لغير أهلها ، ويُبعدون الأكفاء الصادقين لأنهم لا يرضون بما يحدث ، فيختلّ النظام ، وتسود الفوضى ، وتنقلب الموازين ، وتتبدّل المفاهيم ، وترتفع السفلة ، وينزوي المفكّرون ، ويُبعد العلماء و ...

وربّما يسأل سائل أليست هذه الأنظمة هي التي تحكم العالم كله ؟ فكيف يُمكن أن نُطلق عبارة حكم الجّهال عليهم جميعاً دون أن ننظر إلى هذه المدنية أو الحضارة التي نتفيّأ ظلالها ، والتي هي من نتاج هذا العالم الذي تحكمه هذه الأنظمة ؟ .

الواقع أن النتاج العلمي لوسائل الحضارة شيء ، والحضارة نفسها شيء آخر ، كما أن الذين يتحكّمون في العالم شيء ثالث يختلف كلّ الاختلاف .

فإنتاج وسائل الحضارة إنما هو من عطاء العلماء الذين فرّغوا أنفسهم للعلم والعمل ، وبذلوا جهدهم للتجربة وللتطبيق مع أنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون تأثير المجتمع عليهم فتمرّغوا في أوحال نظمهم التي تتحكّم في مجتمعهم وتفرض عليهم صيغةً معيّنةً في الحياة تتناسب

وتتلائم مع النظام القائم فيها .

إن إنتاج الوسائل له جانبه الإيجابي وهو ما يخدم الإنسانية ، ويُهيّئ لها سبيل الرفاهية والنعيم ، ويكون عندها حضارة ، وكذلك فإن للإنتاج جانب سلبي وهو ما يُهدّد البشرية بالفناء ، والمؤسّسات بالتدمير ، ويعمل على نشر الفساد ، والأمراض ، والاختلال ، ونعدّ من هذا الجانب السلبي أسلحة الإبادة الجماعية من نوويةٍ وكيميائيةٍ وجرثوميةٍ ، وأسلحةٍ فتّاكةٍ ، ومن أدخنةٍ ، وخمورٍ ، ومخدراتٍ و ... ورغم أن هذه مخترعات ، ومن نتاج العلم ، ولكن لا يعدّ إنتاجها حضارةً وإنما إبادة للحضارة ، لأنها تُبيد ما أنشأته الحضارة ، وما عملته يد الإنسان لإسعاد البشرية .

أما الذين يتحكّمون في شؤون الناس ، ويتسلّطون على رقابهم من الجهّال فهم المشكلة ، وهم البلاء .

تصرّف الجهّال

أولاً : ألا ترى عند سيطرة الجهّال كيف يتحكّم أصحاب الثراء الفاحش ، وقد فُقدت من قلوبهم الرحمة ، واختفت من نفوسهم الشفقة ، ألا تراهم متُخمين لا يشبعون ، ولا يرتوون ، ولا يسدّ نهمهم شيء ، لو جمعوا مال الدنيا لما كفاهم بل يطلبون المزيد ، ولو قُدّمت إليهم فتيات الأرض لما ارتوت غرائزهم بل رغبوا بالإضافة وبمواصفاتٍ ثانيةٍ ، همّهم المال ، ومطلبهم الجنس ، هذا يُؤمّن لهم ذاك ، وذاك يُساعدهم على تحصيل هذا بالمتاجرة والتسخير ، والدعاية، وجلب أمثالهم إليهم .

إنهم يُسخّرون كل شيءٍ في سبيل الجمع ، ويتصرّفون في الجنس لإرواء شهواتهم ، وللمتاجرة دعايةً وسوقاً ، وإغراءً ، وتجسّساً ، ويتاجرون بالدخان ، والخمور ، والمخدرات ، والأسلحة الفتّاكة ، وكل ما هو محرّم ، والمسؤولون يُشرفون على هذا ، ويُشجّعونه ، ويباركونه ، مع أنهم يعلمون أن في هذا انتشار الأمراض والأوبئة

القاتلة التي لم يُعرف لها علاج ، وفيه اختلال بالعقول ، ودمار للأجسام ، وفساد للمجتمع ، ولكن هذا باسم الحرية المطلقة التي لا حدود لها ، فلكل فرد حريته فيما يفعل ... وفي طريقة الحصول على المال . لقد اتخمت بطون ، ومُلئت خزائن ، وكُدّست أموال في المصارف ، ولكن لاتزال عند أصحابها أطماع للحصول على المزيد ، وشبق لطلب الجنس المستمرّ ، وربّما كان السادة وبطانتهم شركاء مباشرةً أو من وراء الجدر بهذه الأنواع من التجارات .

وإلى جانب هؤلاء يعيش أناس على حالةٍ يُرثى لها ، يتضورون جوعاً إذ لا يجدون ما يأكلون ، ويرتجفون من شدّة البرد ، ولا يلقون ما يلتحفون به بل ما يستر أجسامهم ليقيهم من البرد ، وليُخفي ما لا يصحّ ظهوره ، ويبحثون عن المأوى فلا يعثرون عليه، ويُفتّشون عن الدواء فلا يسعفهم الحظّ ، فيموت أطفالهم جوعاً ، وبرداً ، ومرضاً ، وأعينهم تنظر لا تستطيع فعل شيءٍ سوى سكب عبراتٍ حارةٍ بسخاءٍ تُدمي المآقي وتترك آثار انصبابها على الخدود .

ويرى أصحاب الثراء الفاحش هذه المشاهد باستمرارٍ دون أن تتحرّك ضمائرهم ، أو تهتزّ شعرة منهم ، لا رحمة، ولا شفقة ، يمرّون وينظرون ، وكأنهم لم يروا شيئاً إذ اعتادوا على هذه المناظر كما اعتاد الجزّار على ذبح النعاج وسلخها .

أليس هذا بنظام جُهّالٍ مهما قدّم من علمٍ ، والمعدمون لا يأكلون العلم ، ولا يتغذّون بالحضارة ، إنهم بحاجةٍ إلى ما يسدّ رمقهم ، بحاجةٍ إلى أيدٍ رحيمةٍ ، وقلوبٍ حانيةٍ ، وعطفٍ ليُحسّوا أنهم يعيشون في مجتمعٍ إنسانيٍ ، وليشعروا أن ما يُحيط بهم أفراد من البشر .

ثانياً : ألا ترى ذلك المجتمع الكامل الذي يعيش سجيناً داخل حدود بلاده ، ومع الحياة داخل ذلك الحبس ، يعيش المرء تحت الرقابة يحسّ بأهله يُراقبونه ، وبجيرانه يستطلعون أخباره ، وبالناس جميعاً يتجسّسون عليه عندما يمشي ، عندما يتحرّك ، الكل يُراقبونه لا يستطيع أن يتفوّه بكلمةٍ إلا وعليه رقيب ، ولا ينطق بحرفٍ خارج حدود عمله إلا وهناك مُحصٍ عليه تصرّفاته ، كأن كل حديثٍ مُوجّه

ضدّ السلطة ، وكل حركةٍ لها مقصد ... فالمرء يعيش في ألمٍ نفسيٍ دائمٍ .

ومع هذه الضائقة النفسية التي يُعانيها الإنسان تأتي معاناة أخرى هي معاناة العمل التي تُوجب عليه أن يبذل كلّ طاقاته الجسمية ، أما القدرات العقلية فلا سلطان لهم عليه فيها ، ومع ذلك فهم يتسلّطون عليه باسمه لذا يكون عطاؤه ضئيلاً فالإنتاج قليل والمردود ضعيف ، ويُحاسب على ذلك ، ويُسأل ، ويُراقب ، ولكن لا يستطيع أحد أن يرى منه إلا العمل الجسمي ، أما العزيمة والروح المعنوية فهي خارجة عن نطاق الرقابة وسلطان المتابعة .

ومع هذه الضائقة النفسية في الحياة الاجتماعية وفي العمل ، تأتي ضائقة عائلية إذ لاسلطان له على أهله ، فامرأته تُعاشر من تشاء مادام الأمر برأيها واختيارها ، ومُوافقة ذلك الخليل ، ولا يستطيع زوجها أن يمنعها . وتهوى ابنته من تُريد ، ولا دخل لوالدها في الموضوع مادامت قد بلغت سنّ الرشد ، وهذه هي الحرية الوحيدة في ذلك المجتمع ، حرية الحيوانات في هذا الفعل . وهو ما

يجعل الرجل يُعاني ضائقةً ثالثةً لا تقلّ أبداً عن الضائقة النفسية التي تحدّثنا عنها . أما الحريات الأخرى فهي غير مُتوفّرة أبداً حتى في الطعام ، إذ يُعطى الإنسان من الأرزاق ما يفيض عن الإنتاج ، وممّا هو مُعدّ للتوزيع الداخلي ، ولا حرية للفرد فيما يُحبّ أو لا يُحبّ ، يرغب به أو لا يرغب ، إذ هو مُجبر في أخذ ما خُصّص له ، ولا شيء سواه ، وليس هناك من مالٍ ليشتري به ما يشتهي ، أو ملكٍ يُقايض به ليحصل على ما تتوق إليه نفسه .

وصحيح أن الناس متساوون في العذاب ، والمراقبة ، والضائقة النفسية ، والتفلّت من القيم ، ولا يُوجد في هذا المجتمع فقراء مُعدمين كما وجدنا عند سابقيهم من الجهّال، أي لا توجد طبقات في المجتمع اللّهم إلا تلك الطبقة المعذّبة والمنهكة والتي تشمل أكثر أفراد المجتمع ، وتلك الفئة القليلة التي تتحكّم باسم الطبقة المعذّبة أو الكادحة ، وتعيش في رفاهيةٍ وترفٍ ، ويمكن الإضافة إليها أولئك الذين يعيشون خارج السجن الواسع الذي يضمّ البلاد كلّها ، إذ يحيون خارج الحدود كموظفين في السلك السياسي ، أو خبراء في البلدان المُتخلّفة التي تتعاون مع بلدهم ، هولاء يتنسّمون

شيئاً من الحرية أو يتملّكون هناك أشياء بسيطةً جداً ، أكثر ما تكون شخصيةً لذا فهم يحرصون أشدّ الحرص للبقاء خارج البلاد لينعموا بالحرية على الأقلّ ، فإن طُلب منهم العودة إلى وطنهم كانتهاء مُهمّتهم أحسّوا مباشرةً بالرجوع إلى السجن الكبير ، وشعروا بالأسر ، والضغط ، والكراهية ، وإن كانوا غير بعيدين عن الرقابة التي تُلاحقهم أين ما كانوا ، ليذكروا دائماً وليكونوا على بيّنةٍ أنهم في قبضة السلطة حيثما حلّوا ، ولا يُمكنهم التفلّت منها ، وأنها تطالهم ، وإن كانوا خارج دائرة نفوذها ، لذا عليهم الطاعة، والانقياد للتعاليم ، والتقيّد بالمبادئ التي تُعلنها الدولة ، والتي يُنادي بها سدنة هذا النظام .

إن هذا النظام يسود فيه البؤس واليأس معاً ، ويعيش الناس في ظلّه حياة كبتٍ وضغطٍ عنيفين ، وفي نفس كلّ فردٍ أكداس من الكراهية لسدنة النظام وما تنطوي عليه أفكارهم ، ويتمنّى أن تُفسح له الفرصة ليتخلّص من هذا الأسر البشع ، ولينقلب على سدنته بكلّ قواه حتى يقضي عليهم خوفاً من أن ينقضّوا عليه ثانيةً ويُعيدوه إلى ماكان عليه في السجن ، ويُعيدوا المعذّبين الآخرين من أمثاله . إنه

لا يوجد امرؤ يُفكّر هذا التفكير فيما لو كان سادة نظامه من الحكماء الذين يضعون الأمور في نصابها، وإنما الجهالة هي التي أورثت الناس ما هم فيه ، وعاش أهلها الجهّال في نعيمٍ يرفعون شعار هؤلاء المعذّبين ، ويبدو أن التفلّت من القيود قد بدأ يظهر ، وأخذت الأغلال والقيود تتكسّر بعد أن كبّلوا السكّان مدةً تقرُب من ثلاثة أرباع القرن ذاقوا خلالها المرارة بأبشع معانيها وبمختلف أشكالها .

ثالثاً : ألا ترى ذلك المجتمع الذي يتحكّم به الجند كيف يتخذون أحذيتهم لوطء رقاب الناس الذين يُبدون رأياً سليماً ، أو يطرحون اقتراحاً سديداً فيما إذا كان يُخالف رأي أولئك المتسلّطين ، ويتخذون من ذلك إرهاباً للشعب لإسكاته ، وفي سبيل الضغط عليه لإخضاعه ، ويتخذون البنادق والرشاشات في إبادة مُخالفيهم ، بل قد يُدمّرون القرى والمدن فوق رؤوس ساكنيها إن عارضهم منها مُعارض .

إنهم يتتبعون الناس يُحصون عليهم أنفاسهم ،

ويضغطون عليهم في جميع الأمكنة ، ويُشدّدون وطأتهم عليهم ، حتى ليشعر الشعب جميعاً بثقل الحياة ، ويتمنّى الخلاص من هذا البلاء ، ويُحاول الفرار والخروج من البلاد لينجو من ظلّ هذا الكابوس ، ولكن من ذاك الذي يستطيع الخروج ؟ فالبلاد مُحاطة بأسوار من الجند ، وإذن الخروج ممنوع ، وجوازات السفر غير مسموحٍ بها إلاّ في حالاتٍ قليلةٍ ، ولا يحصل عليها المرء إلاّ بجهدٍ كبيرٍ ، ووساطة خبيرٍ ، ومرورٍ على عددٍ من الدوائر الأمنية ، يخضع فيها المار لأسئلةٍ كثيرةٍ وتحقيقاتٍ واسعةٍ تكاد تزهق روحه في كلّ مكانٍ يدخل فيه ، ولا يستطيع الخروج منه إلاّ كلّ ذي عمرٍ طويلٍ ، وليت التحقيق يكون بالكلام والاستجواب ولكن بالعصا والضرب ، والإهانة والإذلال .

وكلّ فردٍ من أبناء الشعب مُتّهم ، وعليه الكثير من إشارات الاستفهام ، ويبقى مُتّهماً حتى تثبت براءته ، وقلّما تحدث . وربّما تتمّ براءة المنافق الكذّاب ، والمتملّق المراوغ ، والإنسان الشرير ، والعاقّ لأهله ، والخارج على النظام ، وهؤلاء هم القاعدة الأساسية من المدنيين الذين يعتمد عليهم الجند ، هذا بالإضافة إلى المتزلّفين ، وأصحاب

المصالح الذي يركضون وراء كل نظامٍ ، ويصفقون لكل مُتسلّطٍ جديدٍ، ويسيرون وراء كل من يرتقي .

والناس أعوان من واتته دولته   وهم عليه إذا خانته أعوان

هؤلاء الجند يتصرّفون بأمور الدولة حتى ينهكوها ، ولا يجرؤ أحد أن يقول كلمة حقٍّ ، ولو فعل لاختفى ، ولكثرة ما ينفقون دون تخطيطٍ ، وما يُبذّرون فإنهم يجعلون عبئاً ثقيلاً وديوناً على الدولة ، ومع هذا كلّه يدّعون أنهم حُماة الدولة ، ويرفعون شعارات الإنقاذ والدفاع .

ومع ادعاء حكم الجند النظام الجمهوري ، وما يُسمّونه بالديمقراطية ، فإن العسكريين يبقون في السلطة إلى ما شاء لهم هواهم باستفتاءات مُضحكةٍ ، أو بانتخاباتٍ مُزيّفة ، وأشكالٍ تمثيليةٍ ، وقد يكون دون هذا أو ذاك ، ومن غير تعليلٍ ودون تبريرٍ ، فهم أصحاب السلطة ، وأهل الرأي ، ولا مُنتقد لتصرّفهم ، ولا رادّ لفعلهم .

ومع ما تُعاني الأمّة من هذه التصرّفات كلّها فإن الفوضى تعمّ من سوء الأعمال ، ويتمنّى الناس الخلاص من هذا الكابوس الجاثم فوق صدر الشعب .

وبعد أليس من يقوم بمثل هذه التصرّفات يُعدّ من الجهّال مهما ادّعى من أقوالٍ معسولةٍ ، ومهما زعم من أعمالٍ قام بها لخدمة البلاد ؟ .

رابعاً : ألا ترى أولئك الذين جاءوا في مُؤخّرة الركب ، في أواخر الدول ، وقد نشأوا في أثواب العزّ ، ونعيم الرفاهية ، ووجدوا الخزائن ملأى ، والأموال مُكدّسةً ، وجاءهم الخير من كل مكانٍ ، فاستغنوا وغبّوا من الملذّات ما شاء لهم هواهم ، وانصرفوا عمّا أوصلهم إلى المجد ، وحادوا عن جادة الصواب ، وابتعدوا عن شرع الله و ... رغم ادّعائهم دائماً بالمحافظة على ما ورثوه ، وبالمحافظة على الشرع ، الذي فيه عزّهم ، وقد أُمروا بالمحافظة عليه ، غير أن دعواهم شيء ، وواقعهم شيء آخر . فانهارت دولهم على أيديهم ، وبما فعلوه ... .

ألا ترى الخلفاء الأواخر من أيام الأمويين والعباسيين ، وفي الأندلس ، بل وفي أكثر الدول لو أردنا استعراضها ، وإذا جاء أحد المصلحين يُريد استنقاذ ما فسد وتهدّم وجد صعوبةً ، وعجز، لأن الفساد قد عبث بالأركان وعشعش

فيها . كان أولئك الأواخر ينفقون من غير حسابٍ ، ويُعطون للمحظيات عطاء الملوك ، بل يُبذّرون تبذير السفهاء لإرواء شهواتهم ، وربما أعطى الواحد منهم لواحدةٍ في ليلةٍ ما يكفي أمةً سنةً ، وربّما جلس على مائدة القمار فخسر ما يسدّ ميزانية دولةٍ ، ويُقلّد الأبناء الآباء ويُجارونهم ، وقد يزيدون عليهم ، ويتحمّل المسلمون النتائج ، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم . إنهم يغبّون من كلّ هوىً ما شاء لهم هواهم ، فإذا خرجوا للناس أظهروا النسك ، ودعوا إلى التمسّك بالفضائل ، وإذا خلوا إلى إخوانهم في الغيّ قالوا : إنما كنا نسخر من الرعيّة ، ونضحك على عقول أولئك البلهاء البسطاء الذين يطلبون منا أن نكون مثلهم ننسى ذاتنا .

إن أولئك الجهّال يرفعون شعاراتٍ ، ويطرحون طروحاتٍ، ويُنادون بأفكارٍ ... غير أنهم لا يُنفّذون شيئاً منها بل لا يقتربون منها . إنهم يدعون إلى دار الإسلام ولكنهم يعدّون المسلمين جميعاً غرباء ... أهل غرناطة يرون غير ساكني مدينتهم أجانب بالنسبة لهم بل من يُقيم بينهم من مسلمي بقية المدن يُسمّونهم أجانب رغم ادّعائهم العمل للإسلام ،

وكذا قرطبة ، واشبيلية ، وكل مدينةٍ من مدن الأندلس ، ومع ذلك يحمل المسؤولون فيها أسماء الخلافة والتمسّك بالعقيدة ، والدعوة إلى ديار الإسلام ...

مما يزهّدني في أرض أندلس   ألقاب مُعتمد فيها ومعتضد
أسماء مملكة في غير موضعها   كالقط يحكي انتفاخاً صولة الأسد

أليس السفهاء بجهّالٍ ؟ أليس المبذّرون بجهّالٍ ؟ أليس من هذه أفعالهم بجهّالٍ ؟ وإن كتبوا وقرأوا ، وتعلّموا ، وسجّلوا ، وخطبوا ، وادّعوا ، وتكلّم الناس من أمثالهم باسمهم .

خامساً : ألا ترى أولئك الجهّال الذين يستعينون بأعدائهم على أنفسهم ، لقد سقطت غرناطة بأيدي النصارى الإسبان منذ أول يومٍ استعان فيه أول حاكمٍ من ملوك الطوائف بطاغية الإسبان ضدّ الآخرين من أمثاله الحكام الذين استنجدوا بالطاغية نفسه على حاكمٍ ثانٍ .

لقد كان الطاغية يُنجد هذا ضدّ ذاك ، ويبتلع الأول ، ثم يمدّ ثالثاً على الذي أعانه في المرة الأول ، وهكذا سقط الواحد تلو الآخر ، وسيطر الطاغية على مدن وأرض

الجميع ، وأصبح لا يستطيع أحد أن يرفع رأسه أمامه ، أو يُخالفه بكلمةٍ واحدةٍ ، بل لم يعد يوجد في الأندلس مسلم واحد يقول للطاغية : لا ... وهكذا فاعتبروا يا أولي الألباب .

إن من يستعين باليهود أو النصارى مهما بلغت قوتهم على أبناء عقيدته مهما عتوا وفسدوا ، أو أخطأوا وضلّوا يكون قد ضلّ ضلالاً بعيداً ، ولا يجوز له شرعاً ذلك : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يُسارعون فيهم يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين) سورة المائدة ـ الآيتان: ٥١ و ٥٢ . وإذا اقتضت الظروف القاهرة الطارئة بالتعاون فيجب أن تكون القيادة للمسلمين ، وهم القوة الرئيسية ، ويكون القتال متمايزاً حيث تعمل كل مجموعةٍ متميزةٍ عن الأخرى .

وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في موادعة يهود ، وهذا ما سار عليه الصحابة رضوان الله

عليهم عندما طلب بنو تغلب في العراق ، وهم من النصارى ، القتال إلى جانب المسلمين ، وكذلك عندما رغب الجراجمة في الشام القتال مع الجيش الإسلامي[1] ، وإذا بغا المسلم فربما تردعه عقيدته عند المحنة ويعود إلى الحقّ فيقف إلى جانب إخوانه ، وربما تتحرّك فيه الشهامة والمروءة ، وهذا هو المسؤول ، أما الشعب فهو مسلم ، وقد جرّه حاكمه مُكرهاً ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الحاكم يزول ويبقى الشعب . ولكن إذا استمرّ المسؤول في غيّه ، وركب رأسه ، وظلّ على بغيه فإنه لا بدّ من مُحاربته ، ومُساعدة شعبه للتخلّص منه .

ويجب أن نعرف أن اليهود والنصارى لا يدعمون حاكماً إلا ويعملون بعد مُساعدته على الخلاص منه كي يأتوا بآخر يكون أكثر طواعيةً لهم ، وليبقى في إحساسه دائماً أنهم هم الذين رفعوه ، فهم سادته ، وهم الذين يُمكنهم خلعه ،

لذا عليه البقاء مُرتبطاً بهم ، وحتى لا يدّعي الأول الذي نصروه أنه حقّق فوزاً ، أو كان في طرفٍ وحصل على

---

(١) يرجع إلى فصل (أحلاف الضعف والارتباط) من كتابنا "المغالطات"

النصر ، ولا يُريد النصارى واليهود إلا أن يُنسب النصر لهم ، ولا يُحبّون أن يُشاركهم في ادّعائه آخر ، وإن كان معهم ، وحليفاً لهم ، ومهما بذل من جهدٍ وقدّم من تضحياتٍ ، ويجب على حلفائهم أن ينسوا ذاتهم ودورهم نهائياً .

وهكذا يكون الحاكم الذي يستعين باليهود والنصارى قد حفر قبره بيده ، هذا في الحياة الدنيا ، أما في الآخرة فحسابه على الله ، والله أعلم به .

أليس من الجهّال من يسعى إلى حتفه بظلفه ؟ ومن يتخلّى عن أبناء عقيدته ؟ وإن جاروا على حسب رأيه ، وكذلك من يبتعد عن قومه ، وإن قاتلوه حسب ظنّه فيتجه إلى أعدائه الحاقدين عليه ، والذين يتربّصون به الدوائر ويعملون على القضاء عليه ، وعلى عقيدته ؟ أليس من الجهّال من يفعل ذلك لتنفيذ رأيه ، وإبراز شخصه ، وإظهار أنه يستطيع أن يفعل إن قال ، وإعلام الورى أن وراءه من يدعمه ويحميه وينصره ؟ .

سادساً : ألا ترى من الجهالة أولئك الذين يعرفون في

أنفسهم الضعف ، ويرون عدم القدرة لديهم لإعطاء الأحكام الصحيحة ، ويخشون نقد الرعية لهم ، فيأتون بمجموعةٍ من أصحاب الرأي والعلم ، أو من أصحاب الحكمة والفقه ، ويضعونهم بجانبهم يُبرّرون لهم تصرّفاتهم ، ويُؤيّدونها بأقوالٍ ليست صحيحةً بالضرورة ، إذ يُقدّمونها دون أدلةٍ مناسبةٍ ، ومن غير أن تكون عندهم إحاطة تامة بالموضوع. يفعلون هذا ليُعطوا لأفعال سادتهم الصفة الشرعية مقابل المصالح الدنيوية التي تُقدّم لهم ، وربما تكون من غير تقديمٍ ولكن جهلاً بالموضوع .

ليست هذه المجموعة من النصحة ، ولا من أهل الشورى ، بل لايعرضون عليها الأمر لإعطاء الرأي فيه ، ولا إبداء الوجه الصحيح ، وإنما لإيجاد المبرّر ، والتفتيش عن المسوّغات التي اقتضاها ذلك التصرّف الذي قام به المسؤولون قبل أن يسألوا أهل العلم ـ كما يُسمّونهم .

إن الجهّال لا يستشيرون رجال العلم في كل قضيةٍ ، وإنما في القضية التي يخشون أن تُسبّب ردود فعلٍ من قبل الرعية ، وغالباً ما يكون التساؤل بعد القيام بالتصرّفات ،

ووقوع الأحداث لإحراج أهل العلم لأن الأمر قد تمّ وانتهى، وسواء أكان الرأي بالإيجاب أم بالسلبية فقد وقع كل شيء.

إن الجهّال يقومون بكلّ أعمال المخالفات والمنكرات ، ولا يسألون أحداً ، ولا يستشيرون أهل العلم ، فإذا ما عُرض لهم أمر فيه خطورة على مركزهم أسرعوا يطلبون إيجاد المبرّرات ، وهذا ما يُحدث الفوضى ، بل ويُضعف الثقة بأهل العلم ، وقد يكون حول بعض الجهّال ممّن يمنحونهم لقب أهل العلم ، وما هم كذلك ، فيجدون لهم المسوّغات لأعمالهم ، ويبحثون لهم عن المبرّرات لكلّ تصرّفاتهم ، وقد يُضفون عليها الصفة الشرعية ، فيضلّون ويُضلّون .

<u>سابعاً</u> : ألا ترى أولئك القوم من الجهّال الذين سلّطوا على شعوبهم ، ونفخ فيهم الذي وضعوهم في مناصبهم نيابةً عنهم لتنفيذ مُخطّطاتهم فظنّوا بأنفسهم عظماء حقّاً ، وتزلّف إليهم أصحاب الأهواء والمصالح ومدحوهم ، وزادوا في تبجيلهم وتعظيمهم والثناء عليهم ، وأعطوهم أكثر من واقعهم بكثير حتى صدّقوا ما يُقال عنهم ، وأقنعوا أنفسهم أنهم كباراً ، واستبدّوا بشعبهم ، وجعلوا منه فئاتٍ يضربون جماعةً بأخرى ، وكأن جيشهم عدّتهم ضدّ الرعية ،

وسلاحهم لضرب السكان .

وربما دفعوا لتحقيق مُخطّط وهم لا يدرون ، فأوردوا بأمتهم نحو الهاوية ، وقد يزجّون بقواتهم في مُغامرةٍ في سبيل مجدٍ زائفٍ حسبما يتوهّمون ، أو تحقيق زعامةٍ حسبما يتصوّرون ، فيقدّمون أبناء البلاد إلى المذابح ، ويكسبون الشعب الذلّ ، ويرمون البلاد بأيدي الطامعين والمحتلّين ، فيخضع للسيطرة والاستعمار أو التجزئة والتقسيم . أليست هذه التصرّفات من الجهالة ولو كان أصحابها في قمة العلم ؟ ألا تعود نتائجها على الأمة بأبشع النتائج وأمرّها على النفوس ؟ .

ثامناً : ألا ترى أولئك الذين أصابتهم الهزيمة النفسية فنظروا إلى أمتهم نظرة امتهانٍ ، ورأوا في أنفسهم الضعف والتخلّف ، ونظروا إلى الأمم الأخرى نظرة العلو والارتقاء ، ورأوا في غيرهم التقدّم والرفعة ، فأرادوا لذلك التقليد والسير على منوال الآخرين ، وحملوا الشعب على ذلك حملاً ، وألزموهم على التقليد كرهاً ، بما وضعوه في مناهج التعليم ، وبما طلبوا من المؤسّسات التقيّد به قسراً ،

فضاعت هوية الأمة وذابت شخصيتها بفقدان لغتها ، ومفاهيمها ، وهم يظنّون أو يدّعون أنهم يعملون للنهوض بالأمة ، والسعي ليعيش المجتمع حياةً حرّةً كريمةً، وهم في الواقع يُقدّمونه إلى الموت تحت شعار التقليد والتقدّم والمشي على خُطا الأمم المتطوّرة .

إن الاستبداد عنصر من عناصر التخلّف الأساسية ، ومن أسس ضياع الأمّة الرئيسية ذلك أن المستبدّ هو الذي يُجبر على أن تسير الأمّة بخطٍ مُعيّنٍ ، وهو الذي يفرض عليها منهجاً خاصاً ، ويُشجّعها على اتباع أسلوبٍ بذاته ، وعلى التعلّم بلغة غيرها ، والتحدّث بها بما تبثّه وسائل الإعلام ، وتتبعه المدارس والجامعات ، وتتبناه المحافل والمنتديات . ومع هذا لا يستطيع أحد أن يعترض ، ولا يتكلّم فينتقد ، ومن يُفكّر بهذا يُقضى عليه بأسلوبٍ من الأساليب القذرة .

ألا ترى أن الدول النامية أو ما تُسمّى بالعالم الثالث يُحكم أكثرها بالمستبدّين ، وتطغى على أوضاعها صفة الاستبداد ، فما يجرؤ أحد على قول الحقيقة إلا ويُغتال ، أو

يجد نفسه على الأقلّ مُشرّداً ، وما يذهب مُستبدّ إلاّ ويخلفه آخر ، وإن كان كلّ منهما يرفع شعار الحرية ، ويُباهي بسيادة القانون ، غير أن الحرية لا تصل إلاّ لأعوانه الذين لهم مُطلق الحرية بالضغط على الشعب والتصرّف بأبنائه كما يحلو لهم ، ولا يسود القانون إلا بالسجلاّت وما يُدوّن ، وبالدعايات ، يحكم الفرد منهم مدى الحياة ، وهو رئيس للجمهورية ، ويغتصب السلطة وهو باسم الشعب ، ويستبدّ بالنظام باسم النظام .

ألا ترى أن الدول الكبرى صاحبة الأطماع تشجّع على قيام الحكومات الاستبدادية في البلدان النامية أو بالأحرى الأمصار التي تطمع بالسيطرة عليها ، أو مدّ النفوذ إليها ، أو استغلال ثرواتها ، أو وضع يدها عليها ، وبالاستبداد لا يستطيع الشعب أن يُبدي ويُعارض ، ولا أن ينتقد ويُجابه ، وكذلك يكون المستبدّ رهن إشارة الدول الكبرى فإن عصى عليها استبدلته بغيره ، فهناك الكثيرون على قائمة الانتظار ، وكل منهم على استعدادٍ لتقديم تنازلاتٍ أكثر ، والسير بحكمٍ أكثر استبداداً ، وأكثر مرارةً ، وإذا ما تنكّر لسادته تحرّكت فئات ضدّه ، وجاء من ينال أكثر رضىً .

إن الدول النامية دائماً أكثر تغيّراتٍ ، وأكثر خلافاتٍ ، بل عندما نسمع الأخبار العالمية نجد أن أكثر فقراتها تخصّ هذه الدول وما فيها من تغيّراتٍ ، بل إن المناطق الساخنة دائماً في العالم إنما هي في هذه الدول المتأخّرة ، ولا شكّ أن هذا يعود للتخلّف ، كما يعود لتحريض الدول الكبرى ولعبها التي أصبحت معروفةً .

الأنظمة الوضعية

ويعود الأخ الكريم ليتساءل ما النظام الذي يجب أن نتبنّاه مادامت أنظمة العالم اليوم كلّها لاتصلح ، مع العلم أنّها المعتمدة والمطبّقة في كلّ مكانٍ ، كلّ جهةٍ تأخذ بنظامٍ وتعتمده ؟ . ومنها ما يُطبّقه الجهّال وغيرهم على مختلف جهالتهم.

ونُجيب على سؤاله : إن هذه الأنظمة إنما هي من وضع البشر ، وضعها أُناس لتحقيق مصالحهم وشهواتهم من وراء تطبيقها ، وقد جاءت وفق هواهم ، وتبقى مُطبّقةً مادامت تخدم مصالح الذين يتعاقبون على السلطة ، وهم على نهجٍ واحدٍ ، فإذا ما تغيّر النهج ، أو جاء مُتسلّط جديد بنفسيةٍ خاصةٍ اقتضى الأمر نظاماً جديداً ، فيُعدّل السابق، أو يُؤتى بنظامٍ جديدٍ ، وهكذا تتبدّل الأنظمة باستمرارٍ ، وتتغيّر أكثر منها الدساتير التي تُوضع لتوضيح مبادئ النظام ، وأُسس تطبيقه ، والعقوبات التي تترتّب على مُخالفيه ، والنصوص التي يتمّ فيها التغيير . أي أنّ

الأنظمة تنسجم مع طبيعة الجهّال الذين صاغوها ، ونفسية الذين أمروا بوضعها ، وتتفق مع عقلية المتسلّطين من الجهّال.

ولما كانت عقول البشر مُتباينةً ، ومصالحهم مُتفاوتةً فإن كلّ نظامٍ أو قانونٍ لاينسجم تماماً إلا مع واضعه ، ولوقتٍ مُحدّدٍ بالزمن الذي يقضيه هذا الواضع في السلطة ومن يسير على منواله وطريقته من خلفه ، ويشعر الآخرون أنّ في نظامهم عيوباً ونقائص ، ويكون في تطبيقه عليهم إساءات ، وتهرّب ، ومُخالفات ، ومن هنا تكون الفوضى ، ويستبدّ الجهّال لإلزام الناس على التنفيذ ، ويستمرئون ما يُعطيهم النظام من حقوقٍ .

أما النظام الذي يطمح إليه البشر فيجب أن يكون صالحاً لكلّ زمنٍ ، وكلّ إقليمٍ ، يُساير مصالح الناس جميعاً على مُختلف مُستوياتهم ، لا يُراعي مصلحة الحاكم فقط ، ولا شؤون واضعيه ، وهذا لا يكون إلا من واضعٍ يكون فوق مستوى البشر حتى لا تكون له مصلحة في وضعه ، ويكون عالماً بمُتطلّبات البشر وطبائعهم ، وهذا لا

يتوفّر أبداً إلا في خالق الناس ، العالم بما يدور في نفوسهم ، وطباعهم ، ومايصلح لهم ، ولذا فقد شرع لهم شرعاً ، وأمرهم بالتزامه، والتقيّد بأحكامه ، ومن اتبعه فقد هُدي ، ومن تركه ضلّ .

إن الله الذي خلق الخلق لايُمكن أن يتركهم هملاً ، وهو الرحيم بهم ، ولابدّ من أن يُنزل لهم ما يُصلح لهم شؤونهم، وقد بعث لهم رسلاً منهم يهدونهم ، ويُرشدونهم إلى الحقّ ، وأنزل معهم النظام الذي يجب العمل به ، وكان آخرهم ، وناسخ ما قبله ، ما جاء به محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، فمن طبّقه فاز ، ومن ابتعد عنه جهل . ولما كان هذا الشرع لايخصّ الجهّال بخصوصياتٍ وميزاتٍ ، لذا فهم يُحاربونه ، ويتنكّرون له ، ويضعون أنظمةً لأنفسهم تخدم مصالحهم دون سواهم ، فهم جهّال بالحقّ ، جهّال بنتائج أعمالهم في الدنيا والآخرة ، ولا يعرفون من حياتهم إلا بما يحصلون عليه آنياً ، ويبرزون به أمام الآخرين .

إن شرع الله يقف في وجه الظالم فلا يسمح له

بممارسة ظلمه ، وهذا ما يجعله يتهرّب من تطبيق الشرع ، بل والوقوف في وجه تطبيقه حتى يستطيع أن يُمارس الظلم ، ويُحقّق رغبات نفسه .

وإن الشرع يحول دون تحقيق الشهوات وإرواء الغرائز بصورةٍ بهيميةٍ للقادرين على تحقيقها نتيجة تسلّطهم ، وما يملكون من قوةٍ ، أو ما يحوزون من مالٍ ، أو بسبب الرغبة الملحّة عندهم لمرضٍ في النفس ، ولذا فإن هؤلاء جميعاً لايرغبون فيما يحول دون تنفيذ شهواتهم .

وإن الشرع يمنع أصحاب الأهواء من السعي وراء منافعهم التي تضرّ بمصالح الآخرين ، ولما كانوا يصرّون عليها ، لذا فهم يتهرّبون من الشرع .

وبالجملة فإن أهل الأهواء يندفعون وراء هواهم ، ويُعادون كلّ من يقف في وجه تحقيق ما يُريدون ، فمصالحهم فوق مصالح الأمة ، وأهواؤهم فوق متطلّبات المجتمع ، ومن هنا كانت جهالتهم وسيرهم وراء رغباتهم .

جهّال لأنهم يسيرون في وادٍ والأُمّة تسير في وادٍ آخر ، والمتزلّفون لهم كاذبون منافقون وإن كثر عددهم ، ويتخلّون

عن سادتهم في الساعة التي يحطّ بهم القدر ، بل وينقلبون عليهم .

جهّال لأنهم يسعون وراء أهوائهم ، وإن كان في ذلك قتل الرعيّة كلها ، أو إضاعة الأمة جميعاً مقابل تحقيق رغبةٍ ذاتيةٍ للنفس .

جهّال لأنهم لا يعرفون وضعهم الحقيقي لدى الناس كلّهم ، فهم مكروهون ، وإن تمكّنوا من إخراس الألسن ، وكمّ الأفواه ، وكبت الحريات .

جهّال لأنهم لا يعرفون مصيرهم بأيدي الناس عندما يضعف أمرهم ، أو يتخلّى عنهم سادتهم الذين سلّطوهم على شعوبهم .

جهّال لأنهم لا يُدركون المصير الذي ينتظرهم في الحياة الآخرة ، يوم لا قوة لهم ، ولا سلطة لديهم ، يتبرأ منهم كل من كان في الدنيا يتقرّب منهم .

جهّال لأنهم لم يعرفوا أن كلّ من يتملّق لهم في هذه الحياة الدنيا لم يكن ليتزلّف إليهم لو لم تكن له مصلحة

يبغي تحقيقها من ورائهم .

جهّال لأنهم لم يعرفوا الحقّ فيتبعوه ، ولم يعرفوا السبيل القويم للسعادة ، فيسيروا على نهجه ، ويتبعوا طريقه فهو الخير لهم في الدنيا والآخرة .

جهّال لأنهم سلكوا طريق الغيّ ، واتبعوا درب الشهوات ففسدوا وأفسدوا ، وضلّوا وأضلّوا ، فلم يعرفوا الخير لأنفسهم ولا لرعيتهم ، بل لم يعملوا له ، ولم يريدوه لمجتمعهم، فلم يسلكوا سبيله .

إدارة الجهال :

إن الواقع الذاتي للجهّال من عدم الإمكانات أو طبيعةٍ في حبّ الاستبداد والتسلّط ، أو جشعٍ في جمع المال ، أو ميلٍ شديدٍ نحو الجنس ، أو ضعفٍ مع هزيمةٍ نفسيةٍ أمام الآخرين ونشوء حبّ التقليد ومُواكبة غيره ولو كانوا من ألدّ الأعداء ، أو خوفٍ على المنصب فيستنجد بخصوم دينه ، أو تهاونٍ ومُخالفةٍ لعقيدة الأمّة فيعمل على طمسها بالكافرين بها ... هؤلاء وأمثالهم لا يستطيعون إدارة بلادهم بأنفسهم لذا فهم يلجؤون إلى إحدى حالتين إما المركزية الشديدة بربط الدوائر كلها والوزارات فيهم شخصياً ، ويعهدون إلى أشخاصٍ مُعيّنين باستلام بعض الدوائر ويُعطونهم الصلاحيات الواسعة وهذه هي حالة المستبدّين ، وفي مثل هذا الوضع يتصرّف المسؤول والذين أُعطوا الصلاحيات الواسعة في البلد تصرّف المرء بمتاعه ، ويُسرع إليهم أصحاب الأطماع ، ويتزلّفون إليهم فيُعطونهم، ويتقرّب إليهم أهل الشهوات ، ويُثنون عليهم ، ويتشدّقون أمامهم فيُولّونهم ، ويدور حولهم اللئام ، وينبطحون أمامهم ، ويمسحون نعالهم ، ويتلمّظون للحصول على شيءٍ

فيمنحونهم العطاء ، ويستخدمونهم فيعلو شأنهم ، وتكون هذه بطانتهم . ويبتعد العالم إذ لا يقبل الاستبداد ، وينفر العفيف حيث يمتنع عن الطلب ويأبى الإهانة ، ويتجفجف الكريم إذ لا يرضى الذلّ والهوان ، وينأى العزيز ويشمخ مما يرى من التمرّغ أمام هؤلاء المتغطرسين لجهلهم المتجبّرين لسوء خلقهم ... وينتقد الفضلاء الوضع وما صار إليه من ضعة إذ ارتفع الوضيع ، وساد الوغد ، وعزّ الذليل، وذلّ العزيز .

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه ويملك أعناق المطالب وغده
وأقتل داءٍ رؤية العين ظالماً يسيء ويُتلى في المحافل حمده

وغالباً ما يلجأ المستبدّ إلى اختيار الضعفاء في المناصب كي يستطيع السيطرة عليهم ، وتعيين الأذلاء في الوظائف العليا حتى يُعينوه في الحقّ وفي الباطل ، وانتقاء الأشرار في رئاسة الدوائر ليساعدوه في ظلمه ، وليسكتوا عن سوئه .

وأما الحالة الثانية التي يكون فيها المسؤول ضعيفاً ، قليل الإمكانات ، راغباً في جمع المال ، يسير وراء شهواته،

عدوّاً لنفسه وأُمّته فإنه يترك الحبل على الغارب ، فيتصرّف كلّ رئيس دائرةٍ بدائرته ، وكلّ صاحب مكانةٍ بما تحت يديه فتعمّ الفوضى ، ويسود الظلم ، وينأى الكرام عن التمرّغ في هذا الوضع الآسن ، ويسقط فيه اللئام إذ يجدون فيه الموضع الذي يُناسبهم ، والمكان الطبيعي لهم فيرتعون ويمرحون كما يحلو لهم ، ويتمرّغون في الأوحال ، وتعيش البلاد في أبشع حالات السوء . وأما المسؤول فيحيا بعيداً مُترفّعاً يطرب للمديح الكاذب ، ويستعذب الكلام الفارغ ، والحديث الكاذب ، ويُسرّ للبلايا مادام في منأىً عنها ، فيزداد تكبّراً ، ويجمع حوله فريقاً من بطانة السوء يُزيّنون له ما يتخذه من قراراتٍ، ويثنون على ما يقوم به من تصرّفاتٍ ، ويكيلون المدح لكلّ ما يقوم به من أعمالٍ ، وما يسير عليه من سلوكٍ حتى يُصدّق ما يقولون لكثرة ما يُكرّر عليه ، ويظنّ أنه سبب سعادة أمته ، ولولاه لشقيت ونالها التعب لكثرة ما يُردّده المتزلّفون ، وهذا ما يجعله أحياناً يبطش ببعض رجال بطانته إذا ما ساءه من أحدهم موقف، فيكون الواحد منهم قد نال عاقبة أمره بما مشى به من تملّقٍ وكذبٍ ، وبأيدي أمثاله ، وممن كان يعمل على التزلّف

لهم بما كان يقوم به ، وذلك جزاء الظالمين .

ولما كانت البطانة التي حول الجهّال بطانة سوء لذا فإن أول ما يُصيب سوؤها المسؤولين الذين تلتفّ حولهم ، إذ في الوقت الذي تتملّق لسادتها ، وتُشاركهم الإساءة ، وتطلّع على أخبارهم ، وما فيها من خسّةٍ ودناءةٍ فإنها تنقل هذا إلى العامة مُتباهيةً في أنها تحتلّ مركزاً يُخوّلها معرفة الخبايا والاطلاع على الخفايا ، فتسيء بذلك لنفسها ولسادتها ، وتشيع هذه الأخبار ، ويكره العامة المسؤول ، وتنفر منه ، وتريد الخلاص منه ، وربما تعمل لذلك ، وإذا ما تمّ زال وبطانته ، وتكون قد سعت إلى حتفها بظلفها ، وقضت على صاحبها وعلى نفسها ، وليس غريباً فهي بطانة سوء . وهناك نقطة أخرى ، وهي أن من سوء هذه البطانة أن تنقل عن سادتها كل ما هو سلبي ، وتدع ما هو إيجابي ، فلا تجد إلا أخباراً سيئةً تنتشر فيعمّ السوء في المجتمع ، وهذه ظاهرة خطيرة سببها هذه البطانة ، ثم تكون النقمة . وإنه ما انتشرت أخبار العظماء السيئة إلا عن طريق بطانتهم فكانوا أمثلةً سيئةً في التاريخ ، وما حجبت أنباء حسناتهم إلا لأن بطانتهم قد حالت دون ذلك

ووقفت في وجه كلّ خيرٍ ، لأنها بطانة سوء ، وما اعتادت أن تتكلّم إلا بالسوء والفحشاء ، وتبتعد عن الفعل الصالح والعمل الخير .

ولما كانت الجهالة متنوعةً فإن لكلٍ من الجهّال بطانةً خاصةً تتناسب وما يهوى ، فالعامل للمحافظة على بقاء مسؤوليته فإن أعناق بطانته كلّها تشرئب إلى المناصب والرغبة على الدوام فيها بل والترقّي إلى أرفع ، والذي يعمل على تحقيق شهواته يغصّ مجلسه بأمثاله ، ولا يتناول الحديث سوى الجنس ، وهذه الغانية ، وتلك الفاتنة ، وما نالت بوران ، وما وصلت إليه ولاّدة . ومن كان همّه المال انتشرت في أيامه السرقات ، وعمّت الرشوة ، وكان أكابر فاعليها من البطانة ، وأقرب الناس إلى المسؤول أو ممّن أُعطوا صلاحياتٍ واسعةً ، أو نالوا حظوةً ، وهكذا يجتمع حول كلٍّ من الجهّال أمثاله ويختفي العلماء ، وأهل الخير والصلاح .

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت وإن تولت فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ولنأخذ أمثلةً مما يمكن ذكره .

الإمارة الحمدانية :

كان سيف الدولة الحمداني رافضياً ، ضعيفاً ، جباناً ، ومع هذا كان يُحبّ الشعر والرفعة رغم ضعفه وجبنه وخسته ، لذا فقد اجتمع حوله الشعراء ، والفلاسفة ، وكان منهم المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، وابن خالويه ، والفارابي ، وغيرهم . وكان المتنبي يعرف ضعف سيف الدولة ومخازيه ، فكان يُشير أحياناً إلى تلك المخازي حتى يكاد ينخلع قلب سيف الدولة ويخشى أن يُصرّح بها شاعره ، ثم يعود المتنبي للفخر بنفسه حتى يكاد يجعل نفسه فوق ممدوحه ، ولنذكر يوم وقف ليقول :

لكل امرىء من دهره ما تعوّدا وعادة سيف الدولة ...

وسكت ...

وبقي يُكرّر هذا عدّة مرّات ، وفي كلّ مرةٍ يسكت في الموضع الذي سكت فيه في المرّة الأولى ، وسيف الدولة يحمرّ وجهه ويمتقع ، ويخاف أن يقول الشاعر ممّا يعرف فيسري ذلك بين الناس ، وتتناقله الألسن ... ثم نطق الشاعر

وعادة سيف الدولة الطعن في العدا :

وأخذ المتنبي يمدح سيف الدولة ويكيل له في المدح حتى أرضاه ، وانتقل إلى الفخر بنفسه ، فلم يترك له مفخرةً إلاّ قالها :

وما أنا إلا سمهري حملته
فزين معروضاً وراع مسددا
وما الدهر إلا من رُواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنّى به من لا يُغَنّي مغرّدا
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الصائح الحاكي والآخر الصدى

ولننظر إلى الفخر بنفسه في قصيدةٍ ثانيةٍ والتي مطلعها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

حيث يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي

وأسمعت كلـماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردهـا

ويسـهر الخلق جرّاها ويختصم

وجاهلٍ مدّه في جهله ضحكي

حتّى ضربت وموج البحر يلتطم

ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به

حتـى أتـتـه يـد فـرّاسـة وفـم

فالخيل والليل والـبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صحبت في الفلوات الوحش منفرداً

حتى تعجب مني القور والأكم

كـم تطلـبون لـنـا عـيبـاً فـيعـجزكم

ويـكـره الـلـه مـا تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي

أنـا الثريا وذان الشيب والهرم

كان سيف الدولة يقبل هذا من المتنبي مع غصّةٍ في نفسه أو بالأحرى كان يسكت لضعفه ، ولكنه مع هذا لم يُحقّق له رغبته في طلب الولاية التي كان يحلم بها ،

ويرضى عنه ويمنحه العطايا لأنه غيّر الكثير من واقعه لدى الناس المعاصرين وبالتالي بدّل الحقائق للتاريخ فالناس لا يعرفون شيئاً عن سيف الدولة إلا من خلال الشعراء ، وخاصةً شعر المتنبي ، إنهم يعرفون فيه الشجاعة والإقدام ، والقوة والبطولة من خلال دراستهم للأدب إذ يحفظون :

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة

ووجهك وضّاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ضممت جناحيهم على القلب ضمّة

تموت الخوافي تحتها والقوادم

كما يُردّد الناس مع المتنبي :

تظل ملوك الأرض خاشعة له

تُفارقه هلكى وتلقاه سجّدا

وأخذ المؤرخّون يُدوّنون التاريخ من خلال هذه القصائد وأمثالها ، ورسخت في عقول الناس هذه المعاني حتى صارت حقائق لا يُناقش فيها ، مع أن سيف الدولة كان إن

حضر غزوةً شهدها في مُؤخّرة المقاتلين فإذا أحرز المسلمون النصر ، وأخذوا الأسرى من خصومهم الروم ، مرّ هؤلاء الأسرى أمام سيف الدولة وهم أذلاّء ، جرحى فابتسم لما حقّق جيشه من نصرٍ ، وهذا ما يعنيه المتنبي من قوله :

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضّاح وثغرك باسم

وإذا ما قُدّر للمسلمين الهزيمة كان سيف الدولة أولّ الفارين ، بل غالباً ماكان يترك داره التي تقع في شمالي حلب ، وفيها أهله ، ويسير إلى (خناصر) البلدة التي تقع جنوب شرقي حلب على بعد خمسين كيلومتراً ، وكم أخذ الروم من نسائه سبايا في أوّل الأمر ، ثم أصبح يمرّ على داره ، ويأخذ أهله معه إن كان هناك متسع من الوقت قبل أن يُدركه الروم . وإن موقع هذه الإمارة الحمدانية على حدود دولة الروم هو الذي فرض على سيف الدولة القتال ، لا رغبةً منه ، كما أن عادة السكان في منازلة خصومهم ، للذود عن حمى المسلمين ، ونمو فكرة الجهاد عندهم هو الذي ألزم سيف الدولة في تسيير الجيوش لصدّ الروم عن بلاد المسلمين .

ويُدرّس أساتذة الأدب هذه القصائد من وجهة النظر الأدبية والبلاغية دون البحث في موضوع الحقائق ، وإن كانوا يتحدّثون عن عدم صدق العاطفة عند الشاعر ، لذا ترسخ المعاني في نفوس الجيل لما فيها من أدبٍ رفيعٍ ، وقوةٍ في السبك ، وجزالةٍ في الأسلوب ، وجودةٍ في المعنى .

وكما سبق أن قلنا إذا كان المسؤول حريصاً على المركز كانت بطانته حريصةً على المنصب ، ولما كان سيف الدولة مُستمسكاً بالصدارة ، وقُتل عمه سعيد من أجل المركز ، قتله ابن أخيه ناصر الدولة أخو سيف الدولة ، وكانت بطانة سيف الدولة ، ومنهم المتنبي ، حريصةً على المناصب ، فقد كان حلم المتنبي الحصول على الولاية ، ولطالما طالب سيف الدولة بذلك ، فلمّا لم يظفر بحاجته ترك سيّده سيف الدولة مُغاضباً ، وانصرف نحو خصم سيف الدولة ، وهو كافور الإخشيدي في مصر ، علّه يحصل على ما لم يُدركه عند سيف الدولة .

وأما أبو فراس الحمداني فقد كان أكثر طموحاً حيث كان يرغب بالوصول إلى رأس الإمارة ، فهو من الأسرة

الحمدانية ، ونشأ في كنف ابن عمه سيف الدولة ، والذي هو زوج أخته أيضاً ، لذا فهو يقاتل دفاعاً عن مُلكه ، ويُظهر ذلك القتال ، ويتبجّح به ليُبدي أنه أهل للإمارة ، وقد أُسر بيد الروم ، فكان يُكاتب ابن عمه تارةً يستعطفه ، ويقرّ بالفضل له ، ويُعلن أخرى أنه يسير على دربه .

وإنك للمولى الذي بك أقتدي
وإنك للنجم الذي به أهتدي
وأنت الذي عرّفتني طرق العلا
وأنت الذي أهديتني كل مقصد
وأنت الذي بلّغتني كل رتبة
مشيت إليها فوق أعناق حُسّدي
فيا مُلبسي النعمى التي جلّ قدرها
لقد أبليت تلك الثياب فجدد
ألم تر أني فيك صافحت حدها
وفيك شربت الموت غير مصرّد
وفيك لقيت الألف زرقاً عيونها
بسبعين فيهم كلّ أشأم أنكد

ويُظهر تارةً أخرى أنه لا يُريد سوى رضاه ولو غضبت

عليه الدنيا .

فليتك تحلو والحياة مريرة

وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب

إذا صحّ منك العزم فالكل هين

وكل الذي فوق التراب تراب

ويُحاول أن يُظهر لابن عمه أنه وإياه من أسرةٍ واحدة ، فهو يصلح لما يصلح له ابن العمّ .

ومن أين ينكرني الأبعدون أمن نقص جدّ أمن نقص أبْ

ألست وإياك من أسرة وبيني وبينك فوق النسبْ

وداد تناسب فيه الكرام وتربية ومحل أشبْ

ونفس تكبّر إلا عليك وترغب إلاك عمّن رغبْ

فلا تعدلن ، فداك ابن عمّك لا بل غلامك عما يجبْ

وأنصف فتاك فإنصافه من الفضل والشرف المكتسبْ

وكنت الحبيب وكنت القريب ليالي أدعوك من عن كثبْ

ويُبدي مرةً ثالثةً جلده وعدم مُبالاته بالأعداء ، ولا

بالموت ، غير أن الذي يدفعه إلى طلب الفداء إنما هو أُمّه فقط التي تعيش وحدها في (منبج) على الأحلام في رؤية فتاها ، فيقول :

لـولا الـعـجـوز بمـنـبـجٍ ما هـبـت أسـبـاب المنـيّـه
ولكـان لـي عـمـا سـألــت مـن الـفـدا نـفـس أبـيّـه
لـكـن أردت مُـرادهـا ولوانـجـدبت إلـى الـدنـيّـه

ولم يجد بدّاً من الفخر على الدوام ليكون أهلاً للقيام بمُهمّة الإمارة .

وإنــي لــجـرّار لــكـل كتـيـبـة
مـعـودة أن لا يُـخـل بـهـا النصـر
وإنــي لـنـزّال بـكـل مـخـوفـة
كـثـيـر إلـى نُـزالـها الـنظر الشزر
فأظـمـأ حـتـى تـرتوي البيـض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
يـمـنّـون أن خـلّـوا ثـيـابـي ، وإنـما
عـلـي ثـيـاب مـن دمـائـهـم حـمـر
وقـائـم سـيـفٍ فـيـهم اندق نـصـلـه
وأعـقـاب رمح فيهم حُطّم الصـدر

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
فإن عشت فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضّمر الشقر
وإن متّ فالإنسان لا بدّ ميت
وإن طالت الأيام وانفسح العمر
ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به
وما كان يغلو التبر لو نفق الصّفر
ونحن أناس لا توسط عندنا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن طلب الحسناء لم يُغلها المهر
أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر

هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، هم الذين كانوا على الساحة ، وكلهم أصحاب أطماع ، ومصالح ومنافع ، أما أهل الرأي والفكر والعلم والنظر فقد كانوا بعيدين عن ميدان الدولة ، لذا لم تلبث أن انهارت ، إذ أُطلق سراح أبي فراس من

الأسر ، وأُعطي ولاية حمص إقطاعاً عوضاً عن منبج ، ولم يلبث أن تُوفّي سيف الدولة بعد فكاك أبي فراس بسنةٍ واحدةٍ ، وتولّى أمر حلب أبو المعالي ، ابن سيف الدولة ، وهو ابن أخت أبي فراس ، وتولى أمر الوصاية على أبي المعالي غلامه « قرغويه » وطمع أبو فراس في السيطرة على الشام ، فسار إليه جيش ابن أخته ، والتقى الطرفان قرب حمص عند بلدة (صدد) فقُتل أبو فراس ، وذلك عام ٣٥٧ هـ ، وعمره لا يزيد على السابعة والثلاثين .

وانتهت الدولة الحمدانية إثر ذلك لأنها تقوم على رجالٍ جهّالٍ إذ كلّهم أصحاب أطماعٍ ، لا يعرفون من دنياهم إلا أهواءهم ، ولا يندفعون وراء قضيةٍ إلا إن كانت لهم فيها مصلحة ، فهم جهّال وإن كانوا شعراء في القمة .

ومن المؤسف أن هذه الإمارة إنّما يحكم عليها من خلال الشعر ، إذ هو الذي أعطاها الشهرة ، وأعطى رجالها صفة القوة والشجاعة ، وميّزها بالجهاد ، ولم تكن كذلك ، لذا فقد انتهت فجأةً بانتهاء أيام سيف الدولة الذي أبرزه انتماؤه للحمدانيين ، وسابق سيطرتهم على الموصل .

إقليم كاتانغا :

وفي العصر الحديث يُمكننا ملاحظة سيطرة الجهّال في زائير الدولة الإفريقية التي تقع وسط القارة في المنطقة الاستوائية منها ، وتُعدّ من كبريات دول تلك القارة إذ تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف كيلو متر مربع . وفي القسم الجنوبي منها ، وعلى حدود زامبيا توجد منطقة تُعرف باسم كاتانغا ، وقد استوطن فيها بعض الأوربيين ، ووجدوا فيها أكثر من غيرها في أرجاء تلك الدولة مجالاً لحياتهم لمُناخها المعتدل نسبياً نظراً لارتفاعها ، فعملوا على دعم تربية المواشي للإفادة منها في تغذيتهم ، ثم اكتشف فيها كثير من المعادن ، كالنحاس ، والقصدير ، والزنك ، والمنغنيز ، ووجد الفحم فكان كمصدرٍ للطاقة من أجل التعدين ، فكانت عاصمتها (اليزابيت فيل) والتي سُمّيت فيما بعد (لومومباشي) مركزاً للتعدين ، ثم وُجد فيها الذهب ، والماس ، والراديوم ، والأورانيوم .

هذه الثروة المعدنية قد درّت خيراً كبيراً للدولة ، وخاصةً المنطقة التي شعر أبناؤها بالثراء ، وهذا ما جعلهم يحسّون

بالتميّز عن بقية سكان الدولة ، وبرز «لومومبا» ، وأراد أصحاب اللعبة الدولية نفخه ، للعمل على فصل (كاتانغا) عن زائير ، وأخذت وسائل الإعلام العالمية تُظهره ، وترفع من شأنه ، حتّى ظنّ بنفسه أنه عظيم حقّاً ، وأنه ذو مكانةٍ دوليةٍ فعلاً ، ووقعت حرب أهلية في البلاد كان لها أثرها السيء .

أما سكان (كاتانغا) فقد أثّر الثراء في نفوسهم ، وشعروا بالتميّز عن باقي أهالي زائير ، حتى كانوا يُطلقون على أبناء أي جزءٍ من زائير يأتون إلى منطقتهم للعمل أجانب ، ويتصوّرون أنهم جاءوا للنيل من خيراتهم ، وللأخذ من ثروتهم رغم أنهم أبناء دولةٍ واحدةٍ ، وأنهم من جنسٍ واحدٍ ، بل ومن عقيدةٍ واحدةٍ ، وجاء دور المسيطرين الجهّال الذين رسّخوا فكرة هذه الإقليمية ، وعمّقوا جذور هذه العصبية ، رغم مُناداتهم بوحدة الدولة ، ودعوتهم للتجمّع ضدّ أعداء البلاد من مُستعمرين وغيرهم .

كان سكان زائير الذين يعملون في (كاتانغا) لا يستطيعون تسجيل أبنائهم في مدارس الإقليم إلا بنسبةٍ

ضئيلةٍ جداً إذ أنهم أجانب حسب اصطلاح السكان المحليين ، وحسب ما غرس في نفوسهم المسيطرون المحلّيون من الجهّال ، وقد تُفقد هذه النسبة نهائياً في بعض الأوقات ، وهذا أمر في منتهى العجب لأن المناداة بوحدة الأصل والعقيدة ما تنفكّ وسائل الإعلام تُردّدها صباحاً ومساءً وفي كلّ يوم .

وهذا الشعور بالاستعلاء عى إخوانهم في بقية أقاليم الدولة الذي أصبح أهالي (كاتانغا) يعدّونهم دونهم ، قد جعلهم يظنّون بل يتوهّمون أنهم قد بلغوا درجةً الحضارة ، وغدوا يتصوّرون أن ارتباطهم ببقية أرجاء العالم المتحضّر ، وليس بباقي سكان زائير المتخلّفين حسب وهمهم ، ومن هذا الظنّ أو الوهم ، أُصيبوا بعقدة النقص ، والهزيمة النفسية أمام ذلك العالم المتحضّر الذي توهّموا أنهم أصبحوا جزءاً منه نتيجة ثرائهم ، وكتعويضٍ لعقد النقص ، وكتعديلٍ للهزيمة النفسية رأوا أن مُحاكاة المتحضّرين البلجيك والفرنسيين وغيرهم من الأوربيين والأمريكان ترفع من مستواهم العلمي والفكري والاجتماعي ، ولم تكن هذه المحاكاة إلا باللغة ، أما العقلية فبقيت كما هي فالفوضى

سائدة ، واللهو مُستحكم ، والاستهتار بالنظام هو الغالب .

فاللغة الفرنسية هي رمز العلم والحضارة عندهم ، ومقياس التقدّم ، وإن كانوا لا يُقرّون ذلك بألسنتهم ، ويفخرون بلغتهم المحلية ، لكن هذا هو الواقع ، إذ يُدرّسون بالفرنسية ، ويحتجّون بأنها لغة العلم ، ومن لا يُجيد الفرنسية ، ومن لا يتعلّم بها لا يُمكنه أن يُواكب العلم ، رغم ادّعائهم أن لغتهم عظيمة ، وتكفي مفرداتها واصطلاحاتها لاستيعاب كافة العلوم العصرية . وتجد المتعلمين والعامة على حدٍّ سواء يتحدّثون ونصف كلامهم بالفرنسية ، وهم يظنّون أنهم يتكلمون لغة «البانتو» الأصلية ، بل أصبح كثير من الكلمات الفرنسية الشائعة عندهم لدرجة لم يعرفوا سواها ، بل لم يعلموا ما يُقابلها بلغة « البانتو » ، ويُردّد هذه الكلمات الناس على مُختلف مُستوياتهم . اللافتات على المحلات بالفرنسية ، وبلغة « البانتو » ، وقد تكون بالأولى فقط . إشارات الطرق باللغتين أو بالفرنسية فقط . وتتباهى المدارس الأهلية وتفتخر إذا كانت تُدرّس باللغة الفرنسية ، بل وتعدّ هذا تقدّماً وتطوّراً ، وهذا ما جعل لغة «البانتو» تزول تدريجياً ، وتفقد الأمة شخصيتها ، وستزول مع

الـزمن ، وستُصبح تابعةً لغيرها بل جزءاً منها . ولا شكّ أن هذا كله نتيجة سيطرة الجهّال الذين يدعمون هذا الانحراف بجهلهم ، ونتيجة هزيمتهم النفسية ، وعقد النقص الموجودة عندهم ، وتبعيتهم لغيرهـم .

والاستهتار بالنظام هو السائد ، وعندما كان يُسأل الشباب عن التهوّر بقيادة السيارات ومُخالفات المرور ، كان الجواب إن هذا دليل الفتوة ، وفيه إشارة على الشجاعة باللامبالاة ، وعلى الغنى بعدم الاهتمام بالسيارة ، وعلى المركز بعدم إمكانية المخالفة من قبل رجال المرور ، بل عدم إمكانية مجرّد الإيقاف والسؤال ، على حين أن غيرنا من الأجانب لا يمكنهم ذلك لأن القانون يطالهم بينما لا يطالنا نحن . كما أن رجال المرور لا يتدخّلون في المخالفات أبداً ، ويرونها أمام أعينهم ، وقوف غير نظامي ، تجاوز غير صحيح ، قطع إشارات ، إعاقة سير ، لا يتدخّلون إلا إذا وقعت حوادث ، وماعداها فهم تماثيل من القش ، مهمّتهم كحارس البستان الهيكلي المصنوع من القش ليحمي الزروع من الطيور ويحفظ الثمار .

ومن الاستهتار إلقاء الأوساخ في الشوارع العامة ، وبقايا الأطعمة الكثيرة ، وعندما كان يُسأل الذين يقومون بمثل هذه التصرّفات كان غالباً ما يكون الجواب أن هناك مختصّين لجمع الأوساخ التي نُلقيها ، وإن ما يتقاضونه إنما هو من أموالنا ، فنحن لنا الحقّ في الإلقاء مادمنا ندفع أجر من يجمعها . ويُجيب آخرون أن هذا دلالة على المركز إذ أننا فوق النظام وليس هناك من يستطيع الكلام معنا .

والحقيقة أن السادة الجهّال لا يتقيّدون بالنظام أبداً لأنهم يعدّون أنفسهم فوق القانون ، بل إنهم ليُشجّعون الآخرين على انتهاك النظام بمُخالفتهم هم أنفسهم ، وهم القدوة ، أو هكذا يجب أن يكونوا ، ثم بحمايتهم للمخالفين نتيجة القرابة والمعرفة أو المصلحة ، وهكذا يُخرق النظام ممن كان من الواجب عليه أن يحميه . وكانت نتيجة هذا أن قامت حرب أهلية في زائير قضت على الجهالة في (كاتانغا) ، وتحكّمت جهالة جديدة في زائير كلها .

عندما يُسيطر الجهّال إنما يُقرّبون أمثالهم إذ ارتفعوا

على أكتافهم ، وبهم وصلوا إلى القمّة ، فالأمر الطبيعي أن يُشاركوهم في بعض نتاج الحصاد ، فيُعطونهم المراكز الحسّاسة ، ويُسلّطونهم على العباد ، ويُفوّضونهم في التصرّف في شؤون الرعيّة ، ويتّخذون منهم بطانةً ، وهكذا يسود الوغد ، والفاسد ، والذي يُجيد التزلّف ، والمنافق ، فيُخرق النظام ، ويُعتدى على الناس ، ويُظلم الشعب ، ويضطرّ أهل الرأي والفكر أن ينزووا بأنفسهم إذ لا قدرة لهم على الإصلاح وقد جفاهم أصحاب السيادة ، ولا إمكانية لهم على النصح فإن أهل الأهواء لا يرغبون فيه ، ولا طاقة لهم على توجيه الرعيّة حذر الفتنة . والطيور على أشكالها تقع ، والجهّال يلتقون مع الجهّال ، ويستبدّون بالرعيّة ، ويعيش الأخيار على هامش الحياة ، وهذه هي دولة الجهّال .

ويُمكن أن يُسحب ما يُوجد في إقليم (كاتانغا) على دول العالم الثالث ، وما يُعرف بالدول النامية ، والكلام للجميع ، ويجب أن ينظر أهل كل ما يُسمّونه « دولة » على ما يجري في بلدهم ، وأن يأخذوا العبرة مما ذكرناه .